بلاد التيجان السبعة

أصداء المحو

الجزء الثالث



رضا الحكيم الشعيري

غادروا تيرافا مع أول حركة للعربات في أسواقها. سار أوران على الطريق الممتد بين الحقول، وتبعه نائل ورائف حتى ابتعدت البيوت، وخفتت أصوات الباعة خلفهم.

كان نائل ينتظر أن يبدأ الحديث. أمهله عند بوابة البلدة، ثم عند الجسر الصغير، لكنه حين رآه يترك الطريق العام ويصعد نحو المرتفعات، أسرع حتى صار إلى جواره.

«إلى أين نذهب؟ الطريق إلى الساحل من هناك.»

«إلى المكان الذي بدأ فيه كل شيء.»

صعدوا ممرًا تحجبه الأشجار. ظهرت تحت التراب درجات منحوتة، غاص بعضها في الأرض وانكسر بعضها الآخر عند الأطراف. لم يبحث أوران عن الطريق؛ تجاوز شجيرة كثيفة، وانعطف خلف صخرة، فعثروا على امتداد الدرج في الجهة الأخرى.

عند قمة المرتفع انكشفت الأطلال.

امتد شارع مرصوف بين قواعد أعمدة، وانتهى فجأة عند صخر داكن. خلفه بقيت واجهة بناء كبير، مفتوحة على غرف سقطت سقوفها ونمت الأشجار داخلها. في وسط الساحة نافورة جافة، وعلى جانبها درج يصعد إلى باب لم يبَق وراءه شيء.

نزل نائل إلى الشارع. كانت حجارته فاتحة، تختلف عن حجارة المرتفع. تتبع صفوف البلاط حتى الحافة، فلم يجد ركامًا يفسر انقطاعها. الجدار المجاور انتهى بالطريقة نفسها، من أعلاه إلى أساسه.

انحنى رائف، وأزاح التراب عن خط محفور عند طرف الرصيف. سار بمحاذاته، ثم عبر الشارع إلى قاعدة عمود.

«انتظرا.»

أعاد النظر بين الموضعين، واستدار نحو الواجهة.

«هذا الانعطاف أعرفه. رأيته في الخريطة التي كانت خلف الجدار.»

اقترب نائل منه.

«خريطة هذا المكان؟»

«جزء منه، على ما أظن. لم أفهم يومها لماذا ينقطع الطريق بهذا الشكل.»

وضع رائف كفه على الحجر. أحس بالأثر يمتد تحت يده، مستقيمًا نحو أرض لم تعد هناك. اتبعه حتى الحافة، حيث انقطعت صلته بما حوله.

قال أوران:

«احتفظ بما وجدته يا رائف. ستفهمه بعد قليل.»

عبر الساحة إلى جدار التفت حوله جذور غليظة. وضع متاعه قرب النافورة، ورفع بصره إلى القوس المتبقي فوق المدخل.

لحق به نائل.

«وعدتني أن تخبرني حين نصل.»

مّد أوران يده.

«أخرج القطعة التي أعطتك إياها أمك.»

أخرج نائل اللفافة وسلمها إليه. فك أوران القماش، وقّرب القطعة من الضوء، فانحنى رائف ليراها. ظهر الرمز المحفور في قلبها، أوضح مما رآه نائل في المرات السابقة.

قال أوران:

«ُحكم على أبيك لأنه رسم أرًضا قالوا إنها لم توجد. لكنه عرف طرقها، وعاش بين أهلها.»

رفع الختم بينهما.

«قبل سبعمئة عام »



كانت البلاد أرضًا متصلة.

هبطت طرق قاسران من الجبال إلى السهول دون أن يعترضها الممر المشقوق، وامتدت أنهار ميرازا بين مدن لم تفصلها الجزر بعد. وفي رهفان، حيث سيرتفع الجدار الجليدي، عبرت القوافل وادًيا مفتوحًا تحرس مداخله أبراج حجرية.

التقت الطرق في أرض واسعة تتوسط البلاد. هناك قامت أثيرا، في الموضع الذي سيحمل لاحقًا اسم بحر السكون.

وفي قلبها امتدت إيلارا.

دخل الماء العاصمة عبر قنوات تتفرع بين أحيائها، وجرت العربات فوق جسور تصل الأسواق بالمخازن. حمل التجار إليها معادن الجبال وحبوب السهول، وخرجوا منها في طرق محفوظة. خلف أسوارها تدربت الكتائب، فيما عمل البناؤون على توسيع بوابة ضاقت بالقوافل.

في الساحة الداخلية للقصر، اندفع ولي العهد بسيف خشبي نحو كتف أوراس.

أزاح الفارس سلاحه، ومد قدمه في طريقه، فسقط الفتى على ركبته.

«تنظر إلى الموضع الذي تريد ضربه قبل أن تتحرك.»

نهض الأمير، ونفض التراب عن ثوبه.

«لأنك لا تترك موضعًا آخر.»

«إذن اجعلني أتركه.»

هجم ثانية، أسرع من المرة الأولى. قبض أوراس على معصمه وأدار السيف إلى الخارج، فوجد الأمير نفسه يواجه الساحة بدل خصمه.

من الشرفة المنخفضة جاء صوت أخته الصغيرة:

«هذه أسوأ من الأولى.»

كانت تحمل قطعة خبز اقتطعتها من مائدة الإفطار. التفت إليها أخوها، فطرق أوراس كتفه بالسيف الخشبي.

ضحكت الطفلة، ونزلت الدرج مسرعة.

قال الأمير:

«إن كنت تعرفين كل شيء، جربي.»

ناولها سيفه. رفعته بكلتا يديها، ثم هبط طرفه إلى الأرض. أعاد وضعه بين كفيها وأراها كيف تقربه من جسدها.

دخل رجل يحمل سجلًا مختومًا، واستند إلى أحد الأعمدة يتابعهم.

قال لأوراس:

«ما زلت تُسقط تلاميذك بالطريقة نفسها.»

«وما زلت تروي أنك غلبتني.»

«غلبتك فعلًا.»

«بعدما دفعتني إلى حفرة.»

«كان عليك أن تراها.»

عرف الأمير هذا الحديث؛ سمعه منهما كلما التقيا في ساحة التدريب. كان الرجل من آل فالدار، حارس الخريطة، وقد بدأ خدمته مع أوراس قبل أن يتولى أحدهما قيادة الفرسان ويؤتمن الآخر على الخريطة الأصلية.

اقترب من الفتى، وأعاد السيف إلى يده.

«لا تحاول أن تكون أسرع منه دائمًا. دعه ينتظر الخطأ الذي اعتاده، وافعل شيئًا آخر.»

أشار أوراس إلى الساحة.

«جئت تسلّم السجل أم تفسد التدريب؟»

«الملك ينتظره. أما التدريب، فقد أفسدته قبل وصولي.»

غادر إلى الداخل، بينما عادت الطفلة تطلب دورًا آخر.

في مجلس الملك وقف مزارع يحمل وثيقة حقل.

نقل رجال أحد أصحاب النفوذ الحجارة الفاصلة بين أرضه وأملاك سيدهم، وأدخلوا العمال إلى الحقل لشق قناة. بقي صاحبه أيامًا ينتقل بين الموظفين قبل أن يصل إلى القصر.

قارن الكاتب الوثيقة بالسجل ووضعهما أمام الملك.

قال صاحب النفوذ:

«الحقل يعطل وصول الماء إلى أراضّي. عرضت عليه ثمنًا يشتري به أفضل منه، لكنه يرفض لأن أباه ُدفن عند طرفه.»

سأله الملك:

«فأخذته دون موافقته؟»

«لا يمكن تعطيل العمل من أجل رجل واحد.»

أعاد الملك الوثيقة إلى المزارع.

«ُترد الأرض وحدودها اليوم. تمر القناة في موضع آخر، ويُعوّض ما أتلفه رجالك من مالك. سترافق موظف المجلس وتشهد تنفيذ الحكم.»

خرج الرجل خلف المزارع.

كان الأمير يتابع الأحكام من جوار أبيه. وبعد انصراف أصحاب العرائض، دخل رسول بخبر احتراق قافلة عند حدود مملكتين. تحوّل نزاع على رسوم العبور إلى

قتال، وأُغلقت الطريق على الناجين.

قرأ الملك أسماء القتلى وترك الرقعة أمام ابنه.

«عبر هؤلاء أرضنا آمنين. ماتوا بعد آخر برج.»

في وقت لاحق أخذه إلى غرفة الخريطة.

امتدت الرقعة الأصلية فوق قاعدة حجرية، تحيط بها مواضع الآثار. وقف حارسها من آل فالدار عند المدخل، وفسح لهما الطريق.

أشار الملك إلى موضع قريب من إيلارا.

«قطع السيل الطريق هنا. العربات تنتظر منذ الصباح.»

وضع الختم على العلامة، ووّجه خطًا قصيرًا بين طرفي الطريق.

خارج المدينة ارتجف الطين في مجرى السيل. ارتفعت حجارة غاصت تحته، وتماسكت الأرض بينها حتى اتصل الطرفان بممر ضيق. اختبره أحد الحراس، وأشار للعربة الأولى بالعبور.

رفع الملك يده عن الخريطة، وأخذ نفَسا قبل أن يبتعد عنها.

اقترب الأمير من الخط الجديد.

«لو اتصلت الطرق كلها هكذا، لما بقي أحد ينتظر عند الحدود.»

«قد أصلح طريقًا، لكن جيشًا يستطيع إغلاقه في اليوم التالي.»

نظر الملك إلى الخريطة التي تتوزعها حدود الممالك.

«أريد أن أوّحد البلاد تحت حكم عادل، وأن أعيد رسم خريطة العالم. إن نجحنا، فستحكم يومًا أرضًا أوسع من أثيرا. عليك أن تتعلم كيف تحفظ حقوق أهلها قبل أن تفكر في اتساعها.»

قال الأمير:

«وإن رفض الملوك؟»

«نبدأ بإقناعهم.»

اجتمع الحكام السبعة في إيلارا.

جاء دامار من قاسران، وإيران من إيفارا، وميرالا من ميرازا. حضر كاهر عن رهفان، وأردان المشرّع عن ألدوريا، ونايرا عن نومارا، وزافير عن زافرين.

كانت شاراتهم تحمل تفاصيل ستختفي من الصور التي يرثها أحفادهم. بقيت الريشة الثامنة في رمز زافرين، وبقي المقعد الثامن في رسوم الموائد المشتركة. وعلى الخريطة أمامهم ظهرت أثيرا باسمها ومدنها وطرقها.

عرض الملك مشروعه.

تحدث عن بلدات تدفع الضرائب لجيشين في عام واحد، وعن أراضٍ تتبدل تبعيتها كلما مات حاكم، وعن تجار يحملون السلاح أكثر مما يحملون البضائع.

سأله زافير:

«ومن يفصل بيننا حين نختلف؟»

«قانون واحد، وسلطة تستطيع تنفيذه.»

«سلطتك أنت.»

«لن يقوم حكم مشترك إذا احتفظ كل واحد بحق إبطاله حين لا يعجبه.»

تدخل كاهر مطالبًا ببقاء جيشه تحت أمره وحده. رفض أردان التخلي عن استقلال حكمه، وأيدته نايرا. أما دامار وإيران وميرالا فطلبوا وقتًا للنظر في الشروط.

نهض زافير قبل أن يُكتب اتفاق.

«جئنا ملوكًا. لن نخرج موظفين عندك.»

بعد رحيلهم وجد الأمير أباه في غرفة الخريطة.

«لن يقبل زافير. سمعته يتحدث إلى كاهر قبل أن يغادر.»

«وماذا قال؟»

«إنك بدأت تنظر إلى عروشهم كأنها ملكك.»

جمع الملك الرقاع الموضوعة حول الخريطة.

«خاف مما سيخسره قبل أن يسأل عما يمكن أن يتغير.»

«وسيحاول منعك.»

«أعرف.»

لم يُخفِ الجواب قلق الأمير. كان يتصور أن رفض رجل واحد لا يكفي لإيقاف مشروع كهذا، لكنه رأى كيف خرج الملوك من القاعة، وكيف احتفظ كل واحد برجاله قريبًا منه.

جمع زافير كاهر وأردان ونايرا بعيدًا عن القصر.

وضع أمامهم رسمًا لمواضع القوى حول الخريطة الأصلية.

قال كاهر:

«لن نهزمه في أرضه. سيجعل أوراس كل طريق ندخله مقبرة.»

«لن ندخلها بجيش.»

شرح زافير ما يريد: تجتمع القوى السبع، ويُتاح لهم الوصول إلى الخريطة والختم. تُمحى أثيرا، ويُثبت مكانها رسم آخر تقبله الممالك الباقية.

قال أردان:

«فيها مدن وناس.»

«وفي بلادك مدن وناس. هل تسلّمهم لحكمه حين يأتيك بالقوة؟»

لم يكن الملك قد هددهم بالحرب، لكن زافير أعاد طرح الاحتمال كلما عاد أحدهم إلى كلفة المحو. وحين انتهى اللقاء، كان الثلاثة قد وافقوا.

استُدعي دامار وإيران وميرالا إلى اجتماع تلِل. وجدوا القرار قد اتُخذ، ولم يُطلب منهم إلا إحضار آثارهم.

رفض إيران أولًا.

وضع زافير أمامه خريطة حدود إيفارا، وحدد طرق الجيوش التي ستعبرها. فعل الأمر نفسه مع المملكتين الأخريين.

«لن نترك وراءنا ثلاث قوى تستطيع تعطيل ما اتفقنا عليه. تشاركون، أو نأخذ الآثار بعد سقوط عواصمكم.»

كان فارس إيفارا واقفًا خلف ملكه. سمع تهديد الأسرة، وسمع مواعيد الغزو، ورأى إيران يطوي الخريطة بيدين مرتجفتين من الغضب.

خرج الملوك الثلاثة وقد أُكرهوا على المشاركة.

دخل حارس الخريطة على زافير ليًلا.

لم يحمل شارة أسرته. أغلق الباب وراءه، وجلس أمام الرسم.

قال زافير:

«تحرس ملكًا يريد تحويل الممالك إلى أقاليم. تستطيع أن تصبح ملكًا بدل أن تبقى حارسًا.»

«وعلى أي أرض؟»

«الأرض التي ستقوم مكان أثيرا. تحكمها أسرتك، وتصبحون أصحاب التاج الثامن.»

تتبع الرجل موضع المملكة بأصبعه.

«ومن يضمن أنكم لن تقسموها بينكم؟»

«وجود مملكة تحفظ الاتفاق أنفع لنا. عرشك سيقوم بنا، وتعرف ذلك.»

بقي حارس الخريطة يتفحص الرسم، ثم حدد موضع القاعة التي يمكن أن تستضيف الاجتماع.

«اطلبوا إحضار الأصل لمناقشة الطرق والحدود. سأختار رجال النقل والحراسة. حين يبدأ الحديث، يكون الوصول إليه ممكنًا.»

رآه فارس إيفارا يخرج من عند زافير.

عرف وجهه من قصر أثيرا، وأخبر إيران بما رأى. لم يكن لديه دليل على الصفقة، لكن ملكه فهم ما قد يعنيه اللقاء.

كتب رقعة قصيرة وأعطاها له.

«تحملها إلى ملك أثيرا. لا تذكر اسمًا، ولا تخبر أحدًا أنك جئت من عندي.»

اعترض الفارس:

«إن كان حارس الخريطة معهم، فعليه أن يعرف.»

«إن عرف زافير من حذره، بدأ بأسرتك قبل أسرتي. أوصل الرسالة. هذا أمر.»

حمل الفارس التحذير، وترك الاسم الذي كان يمكن أن يغيّر الحراسة حبيس صدره.

قرأ ملك أثيرا الرقعة:

«لا تأمن الموافقة الجديدة. لا أستطيع أن أقول أكثر. احمِ ما لا يمكن تعويضه.»

أحرقها بعد قراءتها.

لم يعرف تفاصيل الفخ، ولا اليد التي امتدت إليه من داخل قصره. أمر بزيادة الحرس، واستدعى أوراس.

كان الأمير يشارك الفرسان التدريب حين وصل الاستدعاء.

هاجم أوراس من الجهة التي اعتادها، لكنه غيّر ضربته عند اللحظة الأخيرة. اضطر الفارس إلى خطوة جانبية، وردّ سيفه قبل أن يفتح لنفسه طريقًا بين بقية المهاجمين.

أزاح رمحًا، وضرب قبضة، وجعل فارسين يعترض أحدهما الآخر. انتهى الهجوم والأسلحة عند الأرض.

رفع الأمير سيفه.

«أخذت خطوة.»

«رأيت.»

«غدًا آخذ الثانية.»

تركه أوراس يجمع سلاحه، ودخل على الملك.

كانت الدعوة الجديدة قرب بقايا الرقعة المحروقة.

قال الملك:

«ابَق قريبًا من ابني. إن تأكدت الخيانة، أنقذه وخذ الختم.»

«أزيد الرجال حولك، وأختار موقعهم بنفسي.»

«افعل. لكن إن اضطررت إلى الاختيار، فلا تجعل الاختيار يبطئك.»

قرأ أوراس الأمر في وجهه. حاول أن يعترض، فرفع الملك يده إلى كتفه.

«أثق بك في هذا أكثر مما أثق بأي رجل.»

عند الرحيل لحقت أخت الأمير الصغيرة بأخيها. كانت تحمل شريطًا ضيّقا لتلفه حول قبضة سيف التدريب، وأصرت على أن يأخذه قبل أن يخرج.

ربطه حول معصمه.

«حين أعود، سنرى إن كنت تستطيعين رفع السيف.»

«وتدعني أضربك؟»

«عليك أن تصيبي أوّلا.»

تركها عند باب القصر، ولحق بأبيه.

كانت الخريطة في وسط القاعة حين دخلوا.

وقف حارسها من آل فالدار عند طرفها، في الموضع الذي عرفه أوراس سنوات طويلة. مر به فبادله التحية، ثم اتخذ مكانه قريبًا من الأمير.

ُوضعت الآثار السبعة.

بدأ الحديث عن الطرق.

تحرك رجال عند الأبواب، وتبدلت الحراسة في المدخل الداخلي. رأى أوراس ممثل آل فالدار يسحب قيد الباب، فخطا نحو الملك.

ضرب زافير قبل أن يبلغه.

دخل النصل في جانب ملك أثيرا. حاول الوصول إلى الختم، فأمسك به حارسه القديم، وجاءت الطعنة التالية.

دفع أوراس الأمير خلفه، واندفع نحو أبيه.

كان الملك ما يزال واقفًا، مستندًا إلى حافة الخريطة. رفع يده إليه، ثم تجاوزته عيناه إلى ابنه.

تحرك فارسان نحو الأمير.

توقف أوراس بين الطريقين.

أشار الملك إلى الفتى.

عاد أوراس، واعترض السيف الذي نزل على عنق ولي العهد.

خلفه انزلقت يد الملك عن الحافة.

رآه يسقط، ورأى حارس الخريطة يفسح المكان للمتآمرين.

قال الرجل:

«ابتعد يا أوراس. انتهى حكمه.»

اندفع أوراس نحوه. ضرب سلاحه حتى ارتطم بالقاعدة الحجرية، وبلغ بنصله موضعًا قريبًا من عنقه.

للمرة الأولى اختفت الثقة من وجه صديقه القديم.

تحرك رمح خلف أوراس نحو الأمير.

ترك الضربة، واستدار ليحميه.

بدأ المحو.

انتشر الضوء عبر الخريطة، وتقدم الفرسان السبعة.

ضرب فارس رهفان برمحه.

اعترضه أوراس، لكن قوة الصدمة دفعته إلى العمود. تشقق الحجر خلف كتفه، وارتجف السلاح في قبضته. قفز الأمير بعيدًا عن الشظايا، فيما عاد الرمح يجتاح الموضع الذي وقف فيه.

جاء سيف زافرين من الجانب. خلف صاحبه تشكل طائر ذهبي، انبسط جناحاه فوق المقاتلين، وانقض الضوء نحو أوراس.

جذب الأمير تحت حافة حجرية، وواجه الانقضاض بسلاحه. تناثر الوهج على الأرض، وترك في عينيه أثرًا حجب عنه حركة الفارس التالي.

تلقى الضربة على درعه.

التوى نصل فارس قاسران تحت قبضته، وتغيرت زاويته نحو الفتى. أمسك أوراس الأمير وسحبه، فشق الحد جانب درعه بدل أن يبلغ عنقه.

لم يتركوا له جهة يستقر عندها.

تحرك أوراس داخل الطوق. دفع ساق رمح إلى سيف، وضرب ركبة صاحب السيف، واستعمل سقوطه ليمنع مهاجمًا آخر من الاقتراب. كلما فتح موضعًا، نقل الأمير إليه قبل أن ينغلق.

على الخريطة اختفت حروف من أسماء المدن.

أحس الأمير بوجه أخته يبتعد عن ذاكرته. عرف أنها أعطته شيئًا عند الباب، لكنه عجز لحظة عن تذكر صوتها.

قبض على الشريط حول معصمه.

«أوراس!»

رأى الفارس عينيه تتجهان إلى الرسم.

«انظر إلي. تحرك حين أتحرك.»

شق رمح رهفان الهواء فوقهما، فهبط أوراس تحته ودفع حامله إلى فارس زافرين. ضرب الطائر الذهبي جانب العمود، وانفجرت الحجارة بين الرجال.

عبر أوراس الغبار.

بلغ طرف الخريطة، لكن شرَخا فتح الأرض بينه وبين الأمير.

قفز الفتى إلى الجانب الآخر ووجد فارس إيفارا أمامه.

ارتفع السيف.

اندفع أوراس، عارفًا أنه لن يصل في الوقت المناسب.

هبط النصل بجوار الأمير وضرب الحجر.

ترك الفارس فرأغا عند جانبه.

عبر الفتى، وبلغ أوراس كتفه. التقت عيناهما لحظة، فعرف أن الضربة لم تخطئ مصادفة.

أغلق فارس زافرين الطريق إلى الختم. واجهه أوراس بضربة أجبرته على الارتداد، وحبس سيفًا آخر تحت سلاحه.

مد يده.

دخل نصل في أعلى ظهره.

ثبت قدمه عند القاعدة وانتزع الختم.

انقطع الضوء في موضعه واندفع عبر بقية الخطوط.

تشققت الخريطة.

قذفت الصدمة الرجال إلى الخلف، وانفصل جزء من السقف فسقط بين أوراس والفرسان. اندفع الحكام إلى آثارهم، يحاولون ضبط القوى التي خرجت عن الرسم.

أمسك أوراس بالأمير، وخرج به.

تمزقت الساحة تحت أقدامهما.

امتدت الشقوق عبر الطرق، وهبطت أبنية في غبار كثيف. بعيدًا عن القصر انخفضت الأرض على امتداد الأفق، واندفعت المياه نحو أراضٍ لم تكن بحرًا.

حاول الأمير الرجوع.

«أختي في القصر!»

سد الانهيار الطريق وراءهما.

قبض أوراس على كتفه ودفعه نحو شارع الأعمدة. خرج فارس إيفارا من الممر، مصابًا في جانبه. صدّ رجلًا حاول اللحاق بهما، وركض خلفهما.

عند نهاية الشارع انفتحت الفجوة.

تبدلت داخلها صور الجدران؛ ظهرت الحجارة جديدة ثم غطتها الطحالب، ارتفع

سقف وانهار، وتعاقب النهار والظلام فوق الموضع نفسه. اجتاحت الواجهة، ووصلت إلى أساس النافورة.

انهار الرصف تحت الأمير.

أمسكه أوراس، والختم محصور في يده بينهما. اندفع ضوؤه على ذراعيهما، وبقي متصلًا بهما حين قفزا.

بلغ فارس إيفارا الحافة بعدهما.

مد يده، لكنه لم يلحق بهما. قذفته الأرض المنهارة داخل الشق وحده.

خرجوا فوق حجارة باردة.

اصطدم الأمير بحافة النافورة، وسقط أوراس إلى جواره. ظهر فارس إيفارا عند الجدار، على بعد خطوات، وانطبق الضوء خلفه.

نهض الأمير وعاد إلى الموضع المغلق.

دفع الحجر بيديه وصاح بأبيه. لم يجبه سوى صوت قطعة تسقط من أعلى القوس.

انتزع الختم من يد أوراس، ورسم به خطًا نحو الجدار.

لم يحدث شيء.

أعاد المحاولة. ضغطه على الأرض حتى جُرحت أصابعه.

جلس أوراس خلفه وأمسك بذراعيه.

«الطريق انقطع.»

«أخرجتنا منه. افتحه!»

«لا أستطيع.»

قاومه الفتى، ثم خارت قوته. بقي أوراس ممسكًا به حتى ابتعد عن الجدار.

مع حلول الليل تمدد الأمير قرب النافورة. أغلق قبضته على الختم، وأخفى وجهه بذراعه التي يحمل معصمها الشريط.

على الجانب الآخر كان فارس إيفارا يحاول التقاط أنفاسه.

ربط أوراس جرحه، لكن جسده أخذ يضعف أسرع مما تفسره الإصابة. شحب شعر عند صدغه، وغارت عيناه خلال أيام قليلة. كان واعيًا بما يحدث، ويراقب يديه كأنهما لم تعودا له.

قال لأوراس:

«رأيت الضوء حولكما قبل أن أعبر. حاولت أن ألحق بك.»

نظر أوراس إلى الختم.

تماسك عبورهما وهما متصلان به؛ أما الفارس فقد تلقاه اضطراب الشق منفردًا، بجسد جريح لم يحتمل ما أصابه.

خلال الأيام التالية أخبرهما بما شهده: تهديد الممالك الثلاث، والتحذير الذي حمله من إيران، وخروج حارس الخريطة من لقاء زافير.

قال الأمير:

«رأيته ولم تحذرنا منه؟»

أجاب الفارس بصعوبة:

«أمرت أن أحمل الرسالة دون أسماء. خفت على أسرتي وأقنعت نفسي بأنني لا أعرف ما يكفي لاتهامه.»

انحنى نحو الفتى.

«حين رفعت السيف أمامك، لم أستطع أن أطيع مرة أخرى.»

لم يخبرهما بتفاصيل الصفقة التي لم يسمعها. عرف أوراس من شهادته كيف أُجبرت الممالك الثلاث، وفهم من الخيانة التي رآها في القاعة كيف وصل المتآمرون إلى الخريطة.

مات الفارس قبل أن يتمكنا من نقله إلى بلدة.

دفناه عند طرف المرتفع. حمل أوراس الحجارة إلى قبره، والأمير يجمع التراب حولها.

في اليوم التالي خرج أوراس يبحث عن طعام، وعن خبر من العالم الذي وصلا إليه.

«هنا خرجتُ مع أبيك.»

عاد صوت أوران إلى الساحة.

نظر نائل إلى الجدار الذي غطته الجذور، وإلى حافة النافورة تحت يده.

تابع أوران:

«انتزع هذا الجزء من المكان وعبر معنا. الشارع، والأعمدة، والبناء. لهذا ينتهي الرصف عند الصخر، ولهذا وجد رائف أثر طريق لا يتصل بالأرض المحيطة.»

تحرك رائف إلى الحافة مرة أخرى.

«الخريطة التي رأيتها حفظت جزءًا من شكله القديم. كنت أظن الخط المقطوع تلفا فيها.»

رسم بإصبعه امتدادًا فوق التراب، يصل قاعدة العمود بزاوية الواجهة.

رآه نائل، لكنه كان يحاول تثبيت حقيقة أخرى.

«الأمير كان أبي.»

«نعم. وملك أثيرا كان جدّك.»

ابتعد نائل عن النافورة، ومشى إلى منتصف الساحة. عاد إلى أوران والختم بينهما.

«وأنت؟ من أنت حتى تعرف كل هذا وتعيش أمامي كل تلك السنوات؟»

رفع أوران حجاب السنين.

استقام الظهر، وانكشف اتساع الكتفين، وظهرت ندوب عند العنق والوجه. لم يصبح شابًا خرج لتوّه من المعركة؛ بقيت عليه السنوات التي عاشها بعدها، لكن الهيئة الواهنة التي عرفها نائل زالت، ووقف أمامه رجل بدا السلاح القديم جزءًا من تاريخه لا حملًا يفوق قوته.

عرف نائل عينيه.

قال أوراس:

«كنت الفارس الأول لأثيرا. أقوى فرسان الممالك في ذلك الزمن. تعلّمت قراءة حركة المقاتل، وانتقال ثقله، واللحظة التي لا يستطيع فيها تغيير ضربته. عرفت كيف أجد منفذًا بين هجمات تأتي من جهات مختلفة. لذلك حملت لقب فارس الجهات الثماني.»

كشف أثر الندبة عند كتفه.

«استطعت بلوغ الختم والخروج بأبيك. لم أستطع أن أكون عنده وعند الملك في اللحظة نفسها.»

نظر نائل إلى وجهه الحقيقي.

«والملك اختارك.»

«أوصاني بابنه.»

«وأبي مات أيضًا.»

بقي أوراس أمامه دون أن يعيد الحجاب.

قال نائل:

«كنت تستطيع أن تخبره أن يتوقف عن البحث. كنت تعرف ما حدث، وتعرف أنهم محوا مملكة كاملة ليخفوها.»

«أخبرته بالخطر.»

«ولو أوقفته، هل كان سيعيش؟»

أجاب أوراس:

«قد يكون. لا أملك جوابًا آخر. لم يكن طفلًا حين بدأ البحث، ولم تكن أثيرا بالنسبة إليه خطوطًا على ورق. ترك أخته هناك. كان يريد أن يعرف إن كانت تنتظره.»

ضغط نائل الختم في راحته.

«ثم أخفيت الأمر عني.»

«أردت أن أعدّك قبل أن أحملك ما حمله. علّمتك ما استطعت، وانتظرت أن تفهم قدرتك. لكن حين بدأت الطرق تستجيب لك، لم يعد الصمت يحميك.»

قال رائف:

«والسنوات؟ كيف بقيتما منذ ذلك الزمن؟»

«لم نعش القرون. تجاوزنا معظمها داخل الشق، وخرجنا قبل سنوات من ولادة نائل. حجاب السنين أخفى هيئتي وقوتي، ولم يمنحني الخلود.»

نظر إلى الختم.

«كان معنا حين عبرنا. كنت ممسكًا بأبيك، فتماسك عبورنا. فارس إيفارا جاء منفصلًا، وأصابه اضطراب الزمن مع جراحه. لكن الختم لا يجعل حامله آمنًا من كل ما في بحر السكون. حفظ اتصالنا في تلك اللحظة؛ لم يمنحنا سلطة على الزمن.»

أعاد الحجاب إلى هيئته المعروفة.

جلس نائل على حافة النافورة. لم ينته غضبه، لكنه أراد أن يسمع البقية قبل أن يبتعد.

«كيف وصلتما إلى قريتنا؟»

لم يعرف الناجيان أول الأمر كم مضى.

رأى أوراس طرقًا لا يعرفها، وبلدات بأسماء لم يسمعها. أخفى ثيابه وسلاحه، وتعلم أن يسأل دون أن يكشف جهله بكل ما يحيط به.

في أول سوق دخلها وجد خريطة للبلاد.

كانت المياه تفصل أراضي عرفها متصلة. وفي موضع أثيرا امتد اسم بحر السكون.

قرأ تواريخ على سجلات، وسمع الناس يتحدثون عن الانكسار كحادثة سحيقة. جمع ما يكفي من الأخبار قبل أن يعود إلى الأمير.

قال أوران لنائل:

«كان أبوك ينتظر أن أعود برجال أو خيل. عدت بالطعام، وبخبر أن القرون سبقتنا إلى هنا. لم نجد شخصًا نعرفه، ولا بيتًا نستطيع أن نقصده باسمنا الحقيقي.»

اختارا الابتعاد عن عواصم الممالك وحصونها وطرق جيوشها. تنقلا حتى وجدا قرية بعيدة عن مراكز الحكم، قليلة الغرباء، يمكن لرجلين أن يبدآ فيها حياة دون أن يُطلب منهما إثبات نسبهما.

عاش الأمير باسم يخفي أصله. كبر وعمل بين أهل القرية، ثم عرف ليارا وتزوجها.

قال أوران:

«أخبر أمك من يكون، وأخبرها أنني أنقذته. لم تعرف كل قوانين الخريطة والمحو، لكنها عرفت ما قد يعرّض أسرته للخطر. احتفظ أبوك بالختم، وبقي يبحث في الخرائط والطرق القديمة.»

«يرسم أثيرا.»

«يرسم ما يتذكره، ويقارن بينه وبين ما وجده هنا. كان يحاول العودة إلى بيته.»

رفع نائل الختم قليلًا.

«حتى حكموا عليه.»

لم يُجب أوران باسم. ولم يطلب نائل الاسم بعد؛ بقي ينظر إلى القطعة التي حفظتها أمه حتى وضعتها في يده.

سأله:

«وآل فالدار؟»

«لم تقم المملكة التي وُعدوا بها. خروج الختم من أيديهم عطّل استبدال أثيرا وتثبيت الرسم الجديد. عرفت لاحقًا أنهم حصلوا على منصب في قاسران.»

حفظ نائل الاسم.

عاد رائف من طرف الساحة وجلس قريبًا منه. كانت بصيرته تؤكد ما حل بالمكان، والختم يستقر في يد صاحبه كدليل صغير على تاريخ أكبر مما استطاعوا تصوره.

قال نائل:

«كيف صارت كل تلك الأرض ممالك تفصلها البحار؟»

أجاب أوران:

«أما كيف استقرت الممالك على هذه الحدود، وكيف صار موضع أثيرا بحر السكون، فلا أعرف ما حدث بالتفصيل. رأيت الأرض تبدأ بالتمزق، ثم عبرنا الشق. تركت البلاد كما عرفتها، وحين خرجنا كانت قد مضت عليها قرون.»

بقي لنائل سؤال لم يعد يستطيع تأجيله.

«وأخت أبي؟»

«بقيت في أثيرا.»

«حية؟»

«المحو لم يكتمل. بقيت المملكة وأهلها داخل الاضطراب. لا أستطيع أن أعدك بما ستجده عند كل باب، لكنهم لم يختفوا كما تقول الكتب.»

تخيل نائل الطفلة عند مدخل القصر، تنتظر درس السيف الذي وعدها به أخوها. أبوه عاد إلى حياة أخرى، وكبر فيها ومات، بينما ظل مصيرها معلّقا وراء البحر.

قال أوران:

«الوصول إليها لا يعني أننا نستطيع إخراج أهلها. قد نفتح طريقًا مؤقتا، أما الاستعادة فتحتاج إلى القوى السبع، وإلى الختم وقدرتك على الرسم.»

لف نائل القطعة بالقماش ووضعها قريبًا من صدره.

«أريد أن أراها.»

حمل أوران متاعه.

«لا بد أن نذهب إلى ميرازا؛ من هناك يمكننا الإبحار إلى بحر السكون.»

عند مغادرة الساحة توقف نائل عند الجدار الذي انغلق خلف أبيه. وضع كفه على الحجر، ثم لحق برفيقيه.



في زافرين، كانت خريطة رهفان مبسوطة أمام جروان.

قرأ جواب فاريك مرة ثانية. رفض إخضاع جيشه لقيادة زافرين، ورفض أن تتحول طرق مملكته إلى ممر دائم لقواتها.

دخل ماردين يحمل سجلًا صغيرًا.

«الحجر الأسود تغيّر. العلامة عند الطريق القديم »

رفع جروان الرسالة أمامه.

«فاريك يتصور أن بقاءه في الاتفاق يتيح له تعطيله متى شاء.»

اقترب ماردين خطوة.

«لم أر العلامة تتحرك بهذه الصورة من قبل. ظننت أن عليك »

«تراجع السجلات وتعود بما تفهمه، لا بما تظنه.»

أشار جروان إلى الكاتب عند الباب، وأمره بإعداد رسالة سرية إلى إيردان.

بقي ماردين لحظة، والسجل مفتوح في يده. كان يستطيع أن يشرح أن التغير لا يشبه حركة عادية في الحجر، لكن جروان بدأ يملي شروطه، ولم يترك له موضعًا للكلام.

أغلق السجل وخرج.

خلفه، بدأ اسم إيردان يُكتب على الرسالة.

وفي الغرفة التي غادرها ماردين، ظل أثر التغير ظاهرًا على الحجر الأسود.

كان الميناء يستيقظ حين عادوا إلى السفينة السوداء. تُدحرج البراميل على الرصيف، وتُسحب شباك الليل من القوارب، ويتصايح رجلان فوق عربة علق أحد عجلاتها بين الحجارة. مرّ نائل بينهم وحقيبته ملاصقة لجانبه، حريصًا على ألا يصطدم بها أحد.

صعد خلف أوران، ووضع المؤونة قرب الصاري. كانت السفينة كما تركها؛ الحبال الملتفة، والشراع المطوي، والخشب الداكن الذي لم يستطع يومًا تمييز عمره. لكنه حين نظر إلى المدخل المؤدي إلى جوفها، تذكّر الرمز على الباب المغلق.

أخرج الختم من غلافه.

رآه أوران، فأخذ مصباحًا ونزل أمامه.

في الممر الضيق، رفع نائل القطعة إلى مستوى الباب. امتدت حول مركزها الجهات نفسها المحفورة في الخشب، حتى الشق الصغير عند أسفل الدائرة وجد له نظيرًا في الرمز.

قال أوران:

«أغلقه أبوك آخر مرة. لم أدخل بعده.»

ابتعد عن الباب، وترك المصباح في موضعه إلى الجدار.

قرّب نائل الختم من النقش. أحس دفئه يزداد بين أصابعه، لكن الباب بقي ثابتًا. تأمل الدائرة، وعدّل وضع القطعة حتى انطبق الخط الناقص على موضعه. استقرت في تجويف لم يكن ظاهرًا من قبل، وسرت تحت راحته رجفة قصيرة.

تحرّك شيء داخل الخشب.

دفع الباب فانفتح إلى الداخل، وانزلق ضوء المصباح على أرض ضيقة وصندوق منخفض. لم تكن هناك نوافذ؛ رف صغير إلى اليمين، ووتد في الجدار، ورائحة قماش بقي مطويًا زمنًا طويلًا.

توقف أوران عند العتبة.

دخل نائل أولًا، ورفع غطاء الصندوق.

في أعلاه رداء داكن، مطوي بعناية، وعلى طيّته شارة معدنية. أزاح الشارة وفرد الرداء بين يديه. كان رداء فتى؛ كتفاه ضيقتان، وأحد أطرافه ممزق، وفي نسيجه غبار ناعم بقي عالقًا بالخياطة.

مدّ أوران يده إلى التمزق.

«علق هنا حين عبرنا. كنت أشدّه إليّ، وظننت أنني أمزّق ذراعه.»

قلب نائل الرداء. رأى الخيط المشدود على حافة القطع، وآثار إصلاح لم يكتمل. وضعه أمام صدره، فوجده على مقاسه تقريبًا.

نظر أوران إليه، وانقبضت يده على حافة الصندوق.

أنزل نائل الرداء وطواه ببطء، محافظًا على الثنيات القديمة. لم يسأل معلمه عما رآه فيه.

كانت الشارة تحمل الرمز نفسه الذي في الختم، محاطًا بنقش دقيق. رفعها إلى الضوء، فمرّر إصبعه على موضع تثبيتها المكسور.

«شارة ولي العهد»، قال أوران. «كان يرتديها هنا.»

أشار إلى صدر الرداء.

وضع نائل الشارة فوقه، ومدّ يده إلى آخر ما في الصندوق.

دفتر صغير، غلافه الجلدي أملس عند الأطراف من كثرة ما ُحمل، يلتف حوله شريط باهت. ظهرت في القماش تجاعيد عقد قديمة، وتنسّلت خيوط قليلة قرب طرفه.

عرف نائل ما يحمله.

وضع الدفتر على ركبته، وأخذ يفك العقدة بأظافره، حريصًا على ألا يشد القماش. لم يتدخل أوران لمساعدته. وحين انفكت، مدّ نائل الشريط فوق كفه، ثم لفه حول معصمه وربطه بعقدة رخوة.

فتح الدفتر.

كان أول ما رآه رسمًا لشارع يصعد إلى ساحة. نوافذ ضيقة، وقنطرة تصل بين بنائين، وشجرة تنحني فوق جدار. أسفل الرسم سطر قصير يحدد اسم المكان.

قربه من المصباح.

عرف الخط.

كانت ليارا تحتفظ بأوراق قليلة كتبها أبوه، وقد حاول وهو أصغر أن يقلد الحروف المائلة في هوامشها. تذكر كيف كانت تمد إصبعها على الكلمات لتقرأها له، وكيف تطوي الورقة قبل أن تتسخ يداه بالحبر.

قلب الصفحة، ثم أعادها.

«هذا خطه.»

لم يحتج إلى جواب. تتبّع بعينه امتداد الحروف، ووجد عند نهاية السطر التصاق الكلمتين نفسه الذي كان يعجز عن تقليده.

امتلأت الصفحات برسوم إيلارا. بعضها كامل، وبعضها توقف عند نافذة أو منعطف. في أحد الهوامش رسم أبوه درّجا مرتين، وفي الثالثة شطب درجة وأضاف أخرى. كانت هناك أسماء أعاد كتابتها، ومواضع تركها بيضاء.

قال أوران:

«رسمها من الذاكرة. كان يعود إلى الصفحة كلما تذكّر شيئًا.»

تأمل نائل بقعة مُسحت حتى رقّ ورقها. وضع إصبعه تحتها، فظهر ظلّه من الجانب الآخر.

عند الباب تحرّك رائف.

«أيمكنني أن أرى هذا الرسم؟»

أفسح له نائل مكانًا. انحنى رائف فوق الصفحة، وتتبع بعينه الشارع حتى القنطرة، ثم عاد إلى التفرع عند أسفلها.

«هذا الجزء كان في الخريطة خلف الجدار. ظننته طريقين متجاورين، لكن أحدهما يمر تحت الآخر.»

قرّب المصباح دون أن يلمس الورق.

«هنا فقد الرسم نصفه. في دفتر أبيك بقي المنعطف.»



انتقل نائل بعينيه بين إصبع رائف والخط الذي رسمه أبوه. لأول مرة استطاع أن يتصور شارعًا حقيقيًا وراء العلامات التي حيّرته؛ مكانًا سار فيه الناس، وفتحوا نوافذهم عليه، وعاد أبوه يرسمه لأنه لم يستطع العودة إليه.

أغلق الدفتر، وبقيت كفه فوق غلافه.

قال أوران لرائف:

«قبل أن نفك الحبال، أريد أن تعرف أن بوسعك العودة إلى تيرافا. ما عرفته في الأطلال يكفي لتفهم أن الرحلة لن تنتهي في ميرازا. إن بقيت معنا فقد لا تستطيع اختيار وقت رجوعك.»

كان صوت الرجال على الرصيف يصل خافتًا من فتحة السطح. رفع رائف رأسه نحو الدرج، حيث ينتظر الطريق إلى المدينة، ثم نظر إلى الدفتر تحت يد نائل.

«لم أكمل الرسم بعد.»

أخذ المصباح وأعاده إلى معلّقه.

«وسنحتاج إلى ضوء أفضل حين نفتحه على السطح.»

حمل نائل الدفتر، ورّد الشارة والرداء إلى الصندوق. قبل أن يغلقه، مرّر كفه على الكتف المطوي. ترك الغرفة وراءه، وانتزع الختم من الباب.

رفع رائف الحبل الأخير عن وتد الرصيف، بينما دفع نائل السفينة بعيدًا بعمود خشبي. انفتح بينهما وبين الميناء شريط من الماء، واتسع حتى عجز العمود عن بلوغ الحجارة.

سحبه نائل إلى السطح، ولحق بأوران عند الدفة.

وضع المعلم البوصلة في موضعها قرب العجلة. دارت إبرتها، وتجاوزت الاتجاه الذي كان نائل يراقبه، ثم استقرت مائلة عنه.

أشار الفتى إلى البحر المفتوح.

«لكن أثيرا هناك.»

راقب أوران الإبرة وهو يعيّر وجه السفينة قليلًا. ارتجفت، وعادت إلى وجهتها.

«وميرازا في هذا الاتجاه.»

«لماذا تشير إليها؟»

«لأن البوصلة تتبع اتصال الطرق، لا موضع المملكة وحده. كان الطريق الذي أعرفه يمر من جهة أخرى.»

نظر إلى الماء، ثم شدّ قبضته على الدفة.

«تعيّر الكثير.»

تحت أقدامهما سرى اهتزاز خفيف في ألواح السفينة، أعقبه صرير ممتد نحو المقدمة. انحنى رائف يراقب موضع اتصال الخشب، فيما رفع نائل رأسه إلى الشراع.

قال أوران:

«هذه السفينة ُصنعت في أثيرا لعبور طرقها البحرية. ما تشعران به استجابة أجزائها لما بقي من تلك الطرق.»

تأمل نائل الخشب الداكن تحت راحته.

«قلت يوم وجدناها إنك لم تأِت بها.»

«لم آِت بها إلى ذلك الموضع. وجدتها هناك، وعرفت ما تكون، فتركتها مستورة تحت الشباك حتى احتجنا إليها.»

كان نائل قد لمس هذا الخشب مرات، ونام فوقه، وتدّمر من صريره؛ ولم يعرف أنه يحمل شيئًا من أرض أبيه.

«هل تستطيع البوصلة أن تقودنا إليها؟»

«تدّلنا على الاتصال. أما العبور فنحتاج إلى معرفة البحر الذي صار فوقه. لهذا نذهب إلى ميرازا.»

ترك نائل موضع الدفة واتجه إلى الحبال. تعاون مع رائف على رفع الشراع، واشتد القماش فوقهما حين امتلأ بالريح. مالت السفينة، وابتعدت أصوات الميناء حتى غطّاها الماء.

عند المقدمة، ثبت نائل عقدة الشريط حول معصمه، ورفع عينيه نحو الأفق الذي غاب فيه آخر امتداد للساحل.

صار يعرف أين تقع أثيرا.

أما الطريق إليها، فلم يكن قد وجده بعد.

ظهرت أبراج ميرازا فوق الماء قبل أن تظهر أرصفتها. امتدت بينها جسور ضيقة، وتدلّت من نوافذ البيوت حبال تحمل سلالًا إلى القوارب. عند مدخل الخليج، تعاقبت أشرعة بيضاء على ممر تحدّه عوامات نحاسية، وخلفها انفتحت أحواض الميناء بين جدران من الحجر الفاتح.

كان أوران يتجه نحو الممر حين تحركت إبرة البوصلة.

انحرفت إلى اليسار، بعيدًا عن العوامات، نحو فجوة بين صخرتين منخفضتين. أبقى يده على الدفّة، وراقب الماء أمام المقدمة. بدا أصفى في تلك الجهة؛ أمكن رؤية خطوط داكنة تحت سطحه.

اقترب نائل من الحافة.

«هناك حجارة.»

امتد صف منها تحت السفينة، منتظمًا أكثر مما ينبغي لصخور قاع البحر. وحين انكسر الضوء فوقه، لمح نائل حافتين متوازيتين تتجهان إلى الفجوة.

خفّف أوران اندفاع السفينة، وأشار إلى رائف أن يرخي الشراع.

«لا تشد الحبل حتى أقول لك.»

ظهر رأس بين الموجات إلى يسارهم.

رفعت فتاة ذراعها، ولوحت بقوة. لم ينظر إليها نائل أول الأمر؛ كان يتتبع الحجارة، حتى جاء صوتها واضحًا:

«أبعدوا المقدمة عن الصخرتين!»

اندفعت سباحة نحوهم. انحسر الماء عن كتفيها، فظهرت حقيبة صغيرة مشدودة إلى ظهرها بحزام عريض. أمسكت بحبل يتدلى من الجانب، لكنها لم تحاول الصعود. كانت عيناها تنتقلان بين الخشب الأسود والمقدمة.

«أِدرها إلى جهة العوامات. الآن!»

ضغط أوران على الدّفة. استدارت السفينة قليًلا، لكن الماء حمل مؤخرتها نحو الفجوة.

قالت الفتاة:

«هناك حافة تحتكم. التيار يعبر فوقها، وسفينتكم لن تعبر.»

انحنى نائل نحوها.

«أين تنتهي؟»

نظرت إلى الماء خلفه، وأفلتت الحبل.

«أحتاج أن أراها.»

غطست قبل أن يجيب.

راقب نائل موضع اختفائها. ظهر جسدها لحظة تحت السطح، ثم ابتلعه ظل السفينة. أمسك الحبل وانتظر أن تخرج من الجانب الآخر.

امتد صرير في الخشب.

«رائف، أنزل الشراع أكثر.»

تفذ رائف أمر أوران، وانشغل القماش فوقهم بالريح قبل أن يرتخي. أبطأت السفينة، لكنها واصلت الانزلاق نحو الصخرتين. تحت المقدمة، رأى نائل الماء يتجّعد فوق خط ثابت، كأنه ينساب على طرف جدار.

تتّبع الحافة حتى حجبها الماء المعتم. بقي إحساس امتدادها واضًحا في ذهنه، يقوده إلى عمود حجري قصير يكاد يغطيه المد.

«الحافة تنتهي عند ذلك العمود»، قال لأوران. «بعده ينقطع الحجر.»

نظر أوران إلى الموضع الذي أشار إليه، وأبقى الدّفة ثابتة.

مّرت فقاعات صغيرة بمحاذاتهم، وانقطعت.

مال نائل خارج الحافة، يبحث عن الفتاة. كان قد أخذ نفًسا لحظة غوصها، ثم اضطر إلى التنفس مرات، وهي لم تظهر.

«لقد تأخرت.»

أدار أوران الدّفة قدر ما يستطيع.

«أبِق عينيك على الماء.»

تحرك نائل نحو السلم الجانبي، وبدأ يفك الحبل المثبت إليه. أمسكه رائف من أعلى ذراعه.

«هناك.»

طفت الفتاة قرب المؤخرة. أزاحت الشعر عن وجهها، وأشارت إلى العمود الحجري.

«الحافة تنتهي عنده. مرّوا إلى يمينه؛ بعده مجرى أعمق يصل إلى الرصيف الخلفي.»

كانت تتكلم دون لهاث.

رفع أوران رأسه نحو العمود. احتاجت السفينة إلى الاستدارة، فيما ظل التيار يدفعها من الجانب. أمسك نائل عمود الدفع، ومدّه في الماء حتى ارتطم طرفه بالحجر. انحنى بكل ثقله عليه.

«ساعدني!»

جاء رائف إلى جواره. ضغطا معًا، وانزلقت يد نائل على الخشب المبتل قبل أن يثبتها من جديد. ارتجف العمود بين كفيهما. أمامهما، انحرفت المقدمة ببطء، وصار العمود الحجري أقرب إلى الجانب مما كان إلى وسط طريقهم.

«كفى. ارفعاه!»

جذباه قبل أن يعلق تحت السفينة. مرّت الحافة المغمورة قريبة، واضحة بما يكفي ليرى نائل الدرجات المكسورة عند طرفها. خُيّل إليه أن السفينة ستحتك بها، لكن الماء اسوّد فجأة تحتهم، وارتفعت المقدمة قليلًا مع موجة دخلت المجرى الأعمق.

سبحت الفتاة بمحاذاتهم حتى تجاوزوا العمود.

ألقى نائل إليها الحبل. أمسكت به، وثبتت قدمها على أول درجة من السلم، ثم صعدت إلى السطح بخفة. سال الماء من ثيابها، وتجمّع عند قدميها، لكنها لم تطلب ما تتجفف به.

قال رائف وهو يسحب الحبل وراءها:

«وجدت النهاية حيث قال نائل.»

نظرت إليه، ثم إلى الفتى.

«رأيتها من هنا؟»

أشار نائل إلى موضع اختفاء الحجارة.

«رأيت أولها. وعرفت أين تنقطع.»

تطلعت إلى الماء المعتم خلف السفينة، وعادت تنظر إليه باستغراب. وقبل أن تسأله، وقعت يدها على الخشب الأسود.

مرّت أصابعها عليه، ثم ارتفعت عيناها إلى انحناءة المقدمة والصاري. تراجعت خطوة لتراهما معًا.

قالت:

«هي نفسها.»

وقف أوران عند الدّفة، يراقبها.

«أي سفينة تبحثين عنها؟»

لم تجب مباشرة. نزعت الحقيبة عن ظهرها، وفتحت رباطها. أخرجت قطعة خشب سوداء، أطول قليلًا من كفها، يقطع أحد أطرافها جزء من رمز محفور.

عرف رائف خطوطه.

«البوصلة.»

نظرت إليه، ثم إلى نائل، كأنها تتأكد أن الكلمة لم تفاجئهما.

«أين وجدتها؟» سأل أوران.

«في الأعماق.»

سارت بمحاذاة الجانب الداخلي للسفينة، وعيناها تبحثان بين الألواح. مرّت بموضع نائل، ثم توقفت قرب المقدمة. انحنت فوق انثناءة في الحافة، حيث انشق طرف لوح قديم وترك تجويفًا غير منتظم.

رفعت القطعة، وقلبتها مرة بين يديها.

حين وضعتها في التجويف، التقت الحواف.

لم تضغطها بقوة. ثبتت أسفلها براحة يدها، ومرّرت إصبعها على خط الكسر. اكتملت تحت إصبعها دائرة الرمز.

انحنى رائف ليراها عن قرب. لم يبق بين القطعة واللوح إلا شق رفيع اسوّد بالماء.



نظر نائل إلى الفتاة. كانت تحدق في الخشب، وقد انفرجت شفتاها قليًلا. كل السرعة التي صعدت بها تركتها عند ذلك الموضع.

«منذ شهور وأنا أحملها»، قالت. «كنت أظن أنني سأجد بقية السفينة في القاع.»

رفع أوران عينيه إلى الميناء البعيد.

«وكيف عرفت شكلها؟»

أخرجت القطعة من موضعها، وأبقتها في كفها.

«رأيتها في لؤلؤة سافيرا. تشكّل الماء أمامي على هذه الهيئة؛ المقدمة نفسها، والصاري نفسه. حين رأيتكم من بين الصخور عرفت السواد أوّلًا، ثم رأيت انحناءة الهيكل.»

نظرت إلى الحافة التي كادوا يصطدمون بها.

«كنت سأصرخ لتتوقفوا حتى لو لم تكن هي.»

قال نائل:

«إذن لم تكوني تنتظرين سفينة عند المدخل.»

«كنت أفحص الطريق الذي كدتم تصعدون فوقه.»

رفع رائف طرف الحبل عن الماء، وبدأ يلفه.

«نحن عادة نسير فوق الطرق.»

التفتت إليه الفتاة.

«في ميرازا من الأفضل أن تتأكد مما صار فوقها أوّلًا.»

أعاد نائل عمود الدفع إلى موضعه، ونظر إلى ثيابها المبتلة. كانت قد بقيت تحت السفينة مدة جعلته يستعد للنزول وراءها، وهي الآن تتفحص قطعة الخشب كأن الغوص لم يكلفها شيئًا.

«أنا نائل. وهذا رائف.»

انتظر أن تنظر إلى الرجل عند الدّفة.

«وأوران.»

رفعت رأسها إليه عند الاسم، وبقيت تنظر لحظة أطول، لكنه كان يعيد توجيه السفينة داخل المجرى.

«إيسا.»

أعادت القطعة إلى الحقيبة، وأحكمت رباطها.

في الطرف الآخر من المجرى ظهر برج منخفض، وفوقه راية تتحرك باتجاه الميناء الرئيسي. وقف رجل عند نافذته المطلة على الماء. تابعت إيسا السفينة بعينيها وهي تدور، ثم اقتربت من أوران.

«لا تدخلوا الميناء الرئيسي بها. هناك من يبحث عنها.»

لم يغيّر أوران قبضته على الدّفة.

«وأين يقود هذا المجرى؟»

«إلى أرصفة الصيادين. ابَق قرب الجدار بعد المنعطف. الماء في الوسط أضحل مما يبدو.»

عمل بإرشادها.

ضاقت المسافة بين السفينة والبيوت القائمة على الماء. خرجت امرأة إلى شرفتها، وسحبت سلّة قبل أن تصدمها قمة الصاري. تحت جسر حجري، انحنى نائل ورائف، ومرّ ظل القنطرة فوق السطح ثم انفتح الضوء على حوض صغير مزدحم بالقوارب.

أشارت إيسا إلى رصيف خالٍ قرب درج ينزل من بين منزلين.

قفزت إليه بالحبل قبل اكتمال الاقتراب، ولفته حول وتد غليظ. أخذ نائل الحبل الآخر، وجذبه حتى استقر جانب السفينة بمحاذاة الخشب.

صعد أوران من عند الدّفة.

قالت إيسا:

«لم أر أحدًا يدخل من ذلك الطريق منذ بدأت أغوص فيه. الصيادون يبتعدون عنه، والخرائط لا تذكره. لماذا اتجهتم إليه؟»

أخرج أوران البوصلة من موضعها، وأغلق غطاءها. نظر إلى حقيبتها التي ضمّت قطعة الخشب، ثم إلى نائل. كان الفتى ينتظر جوابه هو أيضًا.

أبقى البوصلة في يده.

«نبحث عن طريق إلى بحر السكون.»

توقفت يداها عن شد العقدة.

نظرت إلى الحقيبة، ثم إلى الممر الذي خرجوا منه. صار صوت السوق وراء البيوت واضحًا؛ بائع ينادي، وصندوق يسقط، وضحكة ترتفع من أحد القوارب.

قالت:

«أبحرت مع الأسطول الفضي. عدنا من دون أن نجد ما خرجنا نبحث عنه، فعدت إلى الغوص وحدي.»

مدّت يدها إلى السفينة، وأراحتها على الخشب الأسود.

«كل مرة أجد شيئًا لا ينبغي أن يكون هناك. حجر طريق بعيدًا عن اليابسة، نقشًا لا يشبه نقوش الميناء وهذه.»

لمست حقيبتها.

اقترب نائل من الحافة.

«ما الذي تبحثين عنه في بحر السكون؟»

«أبي دخله.»

انتظر أن تكمل.

شدّت العقدة مرة أخيرة، واختبرت الحبل بقدمها.

«عاد شيخًا. لا يتذكر كيف وصل، ولا ما رآه هناك.»

التفت نائل إلى أوران. التقت عيناهما، فعاد إليه وجه الفارس الذي سمع حكايته في الأطلال.

لم يخَف ذلك على إيسا.

«تعرفان شيئًا.»

نزل أوران إلى الرصيف.

«قد نعرف ما يساعد على فهم الذي حدث له. نحتاج أولًا إلى رؤية ما وجدته.»

التقطت إيسا حقيبتها.

«إذن تعالوا.»

قادتهم إلى الدرج بين المنزلين. عند أعلاه، وقبل أن تنعطف بعيدًا عن الماء، التفتت إلى السفينة مرة أخرى.

هذه المرة تركت قطعة الخشب في حقيبتها. لم تعد تحتاج إلى إخراجها لتتأكد.

كان بيت إيسا في آخر ممر ينتهي إلى البحر. صعدت درجتين، ودفعت الباب بكتفها، ثم أسرعت إلى رجل واقف قرب المائدة.

«تركت لك المقعد عند النافذة. لماذا تحمل هذا؟»

كان يمسك إبريقًا فارغًا بكلتا يديه. رفعه نحوها كأنه يريد أن يريها إياه، وبحث بعينيه عما يضعه فيه.

أخذته منه.

«سأملؤه. اجلس أولًا.»

قادته إلى المقعد، وأبعدت عن قدميه طرف بساط ملتف. انحنت لتسوّي القماش خلف ظهره، ثم وضعت كفه على مسند الخشب قبل أن تتركه.

بقي نائل عند الباب.

كان الرجل شيخًا نحيلًا، جلد يديه رقيقًا فوق العروق، ورأسه مائلًا قليلًا إلى كتف واحدة. حين حاول الالتفات إلى الداخل، تحرك جسده كله معه. بحث نائل في وجهه عن شبه بإيسا، فوجده حول العينين.

نظر إلى أوران.

التقت عيناهما فوق كتفها، ثم عاد أوران ينظر إلى الرجل.

«أبي»، قالت إيسا. «كان يعمل في البحر.»

لم تضف شيئًا. أخذت منشفة من مسمار قرب الموقد ومسحت بها شعرها وذراعيها، ثم ملأت كوبًا بالماء. ناولته لأبيها، وأبقت يدها أسفله حتى أمسكه جيدًا.

نظر الشيخ إلى الضيوف.

«هؤلاء »

انتظر الكلمة التي لم تأتِ.

قالت إيسا:

«جاؤوا ليروا الأشياء التي جمعتها.»

حرّك رأسه كأنه فهم. شرب قليلًا، ثم حاول وضع الكوب خارج حافة المائدة. نقلته إيسا إلى الداخل دون أن تقطع حديثها:

«الغرفة هنا.»

فتحت بابًا جانبيًا. دخل الضوء من نافذة منخفضة على ألواح خشبية نُشرت فوقها قطع حجر وخزف، وشظايا معدن غطاها الملح. عُلّقت على الجدار حبال قصيرة بعقد متفاوتة، وإلى جوارها خريطة ساحلية امتلأت بعلامات صغيرة.

مرّ رائف أمام الرفوف، لكن إيسا أزاحت معظم ما على المائدة إلى طرفها.

«هذه الأشياء وجدتها قرب الميناء. لا نحتاج إليها.»

اختارت حجرًا مستطيلًا داكنًا، وغسلته بقليل من الماء في إناء. ظهر وجهه مصقولًا، بينما بقيت جوانبه خشنة.

«هذا بعيد عن الساحل. لم يكن وحيدًا؛ تحته صف آخر، وبجانبه حجارة موضوعة بالطريقة نفسها. نزلت ظنًا أنني وجدت حطام بناء، لكن الرصف استمر أبعد مما استطعت تتبعه.»

رفع أوران الحجر، ومرّر إبهامه على أخدود ضيق في جانبه.

«وُضع ليلتقي بغيره.»

أعاده إلى المائدة.

أحضرت إيسا قطعة ثانية، أصغر، على وجهها نقش أكل الماء طرفه. انحنى رائف فوقها، وطلب من نائل الدفتر.

أخرجه نائل من حقيبته. تردد قبل أن يضعه قرب الإناء، فأزاحت إيسا الإناء إلى الأرض ومسحت المائدة بطرف المنشفة.

قلب رائف الصفحات حتى بلغ رسمًا في أسفل إحدى الورقات. قرّب القطعة منه، وعيّر اتجاهها.

«هنا.»

مال نائل إلى جانبه. ظهر النقش كاملًا في رسم أبيه، فوق مدخل منخفض عند طرف شارع. لم ينتبه إليه حين فتح الدفتر في السفينة؛ ظنه جزءًا من الزينة المحيطة بالحجارة.

وضع رائف إصبعه قرب الطرف المكسور.

«ما فقدته القطعة بقي في الرسم. الخط ينحني هنا، ويلتقي بهذا.»

اقترب أوران من الضوء.

«علامة محطة عبور. كانت توضع عند المواضع التي يلتقي فيها الطريق بالمرسى.»

نظرت إيسا إلى الرسم، ثم إلى خريطتها على الجدار. نزعتها من المسمارين، وبسطتها فوق الطرف الجاف من المائدة.

«وجدت الحجر هنا. والنقش أبعد إلى هذه الجهة.»

حددت الموضعين بإصبعها. كان بينهما فراغ واسع من الماء على الخريطة.

بحث أوران عن امتداد يصل أحدهما بالآخر، لكن إيسا وضعت كفها في طريق إصبعه.

«النقش كان منفصلًا. لا يمكنك رسم خط بينهما وافتراض أن الطريق تحته. التيار يحمل الأشياء من هذا الجانب.»

تتبّع إصبعها انحناءة حول نتوء ساحلي، ثم عاد نحو علامة صغيرة رسمتها بعيدًا عن بقية العلامات.

وقف أوران عندها.

«وما هذه؟»

أبقت إصبعها على الورق.

«هنا وجدوا قارب أبي.»

وصل من الغرفة الأخرى احتكاك خفيف. كان الشيخ يمرّر سبابته فوق المائدة، يرسم دائرة لا يغلقها، ثم يعود إلى بدايتها.

رفعت إيسا رأسها لتطمئن عليه، ثم تابعت:

«كان القارب ينجرف. لم يجدوا فيه كسرًا، ولا كان يحمل ما يفسر الذي حدث له. أبي كان بداخله، ولم يستطع أن يخبرهم من أي جهة جاء.»

نظر نائل إلى موضع العلامة. لم تكن على طرف بعيد من الخريطة كما توقع.

«هل غصتِ هناك؟»

«حول الموضع. في بعض الأيام ينقلب التيار قبل أن أبلغ القاع. أستطيع البقاء تحت الماء، لكنني لا أستطيع منع البحر من حملي حيث يريد.»

أشارت إلى علامتي الحجر والنقش.

«كنت أبحث في الأماكن التي يدفع الأشياء إليها. لهذا عدت إلى مدخل الميناء اليوم.»

راجع أوران المواضع الثلاثة.

«إذا جاءت القطعة من محطة على الطريق، فقد يحملها التيار نفسه الذي حمل القارب.»

أجابته إيسا:

«هذا ما أريد اختباره. لكنني لم أكن أعرف ما الذي أبحث عنه في القاع.»

دفع رائف الدفتر قليلًا نحوها.

«صار لدينا شكل العلامة كاملة.»

أخذت إيسا ورقة صغيرة، وبدأت تنقل الخطوط. أبطأت عند الجزء الذي أكله الماء من الحجر، وقارنته بالرسم مرتين.

راقبها نائل وهي تعمل. قبل قليل كانت القطعتان مما تركه البحر في يدها؛ الآن صار لكل واحدة موضع محتمل ووظيفة، وصار الفراغ بينهما يستحق أن يعودوا إليه.

رفع الشيخ كوبه في الغرفة المجاورة، فوجده فارغًا. ظل يميله نحو فمه.

تركت إيسا الورقة وذهبت إليه.

«انتهى الماء. أعطني إياه.»

لم يفلت الكوب أوّلًا. أبقت يدها تحته حتى ارتخت أصابعه، وملأته إلى النصف. هذه المرة جلست على طرف المقعد حتى شرب، ثم أعادت الكوب إلى المائدة.



عادت إلى الباب، وبقيت تنظر إلى أوران.

«على السفينة قلت إنك قد تعرف ما حدث له.»

أغلق رائف الدفتر، وأبقى إصبعه بين صفحاته عند الرسم.

قال أوران:

«رأيت رجلًا خرج من اضطراب أصاب الزمن. تغيّر جسده في أيام. لم يصبه مرض عرفنا كيف نداويه.»

«وكان مثل أبي؟»

نظر إلى الشيخ، الذي عاد إصبعه يتحرك فوق الخشب.

«يشبهه في بعض ما أراه. لا يكفي ذلك لأقول إنني أعرف كل ما حدث له.»

دخلت إيسا الغرفة، وأسندت يديها إلى المائدة.

«وهل عاد كما كان؟»

«لا.»

انتظرت أن يضيف شيئًا. حين لم يفعل، نظرت إلى رسم المحطة.

قال أوران:

«لا أملك ما يعيد إليه السنوات التي أخذها البحر. أما ذاكرته، فلا أعرف مقدار ما ُفقد منها، ولا ما يمكن أن يعود. لن أعدك بشيء قبل أن نفهم الموضع الذي دخله.»

شدّت إيسا المنشفة بين يديها، ثم طوتها ووضعتها بعيدًا عن الخريطة.

«كل من عاد من البحر بعده صار يصف لي وجهه. يقولون إنه شاخ، كأنني لم أره. أريد أن أعرف ماذا حدث قبل أن يجدوه في ذلك القارب.»

نظر نائل إلى الشيخ؛ كانت تبحث عن أبيها الذي عاد ولم يعد كما عرفته، وكان يبحث عن أرض أبيه التي ظل بعيدًا عنها حتى مات.

وضعت إيسا الورقة التي نسخت عليها النقش فوق العلامة.

«سأذهب إلى هنا.»

قال أوران:

«قد يكون القارب قد انجرف من مكان أبعد.»

«ولهذا سأفحصه. أنا ذاهبة عند الجزر. إن أردتم الطريق، تعالوا معي.»

نظر أوران إلى الخريطة مرة أخرى.

«كم يبقى لنا؟»

تحولت عيناها إلى الضوء عند النافذة.

«نستطيع الخروج بعد الظهر. نصل قبل أن ينحسر الماء، وننتظر هدوء التيار هناك. لدينا فسحة قصيرة قبل أن يتبدل اتجاهه.»

أعاد نائل الدفتر إلى غلافه.

«سآخذه معنا.»

قال رائف:

«سأنقل الرسم أولًا. نبقي الأصل جافًا، ونأخذ النسخة إلى الحافة.»

سحبت إيسا ورقة أخرى من الرف ودفعتها إليه، ثم تناولت حبلًا طويلًا. فحصت عقده بين أصابعها، وأزاحت جزءًا تآكل قرب طرفه.

«نحتاج إلى حبل أثقل من هذا، وإلى ثقل يبقى في القاع. لا أريد أن نجد الموضع ثم نفقده حين يتحرك الماء.»

قال أوران:

«لدينا ما يصلح في السفينة. نلتقي عند الرصيف قبل الخروج.»

خرجت إيسا إلى البيت المجاور لتطلب من جارتها البقاء مع أبيها. جمع رائف أوراقه، وحمل نائل الدفتر إلى الباب.

عند المائدة، كان الشيخ يرسم بإصبعه دائرة على الخشب. رفع إصبعه قبل أن يغلقها، ثم بدأ من جديد. توقف في الموضع نفسه، تاركًا الشق الصغير نفسه.

عرف نائل موضعه من رمز الختم والباب. وضع يده على الختم داخل حقيبته، ولم يقل شيئًا.

من الخارج جاء صوت إيسا تناديه ليريها الحبال. شدّ الحقيبة إلى كتفه، وخرج.

«لدينا ربع ساعة من هدوء التيار.»

شدّت إيسا الحبل حول خصرها، ومرّرت طرف العقدة تحت الحزام حتى لا يتدلّى قرب ساقيها. عند جانب السفينة، كان الثقل المربوط بحبل آخر قد اختفى في الماء، وبقي حبله قائمًا يكاد لا يميل.

أشارت إلى الحبل الذي سيبقى مع أوران.

«هذا لتعرفوا موضعي وتساعدوني في العودة. إذا علق، لا تشدّوا قبل أن تعرفوا أين؛ قد يسحبني إلى الصخر بدل أن يرفعني.»

تفقدت السكين القصيرة عند حزامها، ثم جلست على الحافة.

كانت ميرازا بعيدة خلفهم. أمام السفينة ارتفع نتوء صخري داكن، تكشف عند أسفله شريط لامع كلما تراجع الماء. أشار أوران إلى رائف أن يراقب حبل الثقل، فيما أبقى نائل عينيه على الموضع الذي علّمته إيسا في خريطتها.

هنا وجدوا القارب.

سحبت إيسا نفَسا طويلًا، وانزلقت في الماء.

انحنى نائل فوق الجانب. رأى قدميها تتحركان بمحاذاة حبل الثقل، ثم لم يبق منها إلا ظل يهبط في الضوء الأخضر. أرخى أوران الحبل تدريجيًا، يتابع مقدار ما ينساب بين يديه.

عند النتوء، تراجعت موجة عن حافة مستوية.

أخرج رائف نسخة الرسم وثبتها تحت كفه.

«هذا الحجر مقطوع.»

ظهر أسفل الحافة صف ثانٍ، ثم درجة ضيقة غطاها الطحلب. كان البحر ينحسر عن جزء من بناء التصق بالصخر حتى بدا منه.

تحرك حبل إيسا إلى الجانب، وتوقف.

بعد قليل ظهرت يدها عند الدرجة، وتبعها رأسها. أمسكت بشق في الحجر، ورفعت وجهها عن الماء.

«وجدت العلامة. تحتنا محطة، أكثر سقفها مكسور.»

أشارت إلى جانب النتوء.

«هناك مدخل هنا. أستطيع رؤية أعلاه من الأسفل، لكن ما وراءه يبدو مسدودًا.»

قرب أوران السفينة من الجهة المحمية، وألقى رائف حبلًا حول كتلة بارزة. حين استقرت، نزل نائل إلى الحافة وعصاه في يده. اختبر الحجر بقدمه قبل أن ينقل ثقله إليه، ثم مدّ يده لرائف.

كان عرض الحافة يكفيهما متجاورين بصعوبة. ارتطم الماء بأسفلها، وترك رذاذا بارِدًا على وجهيهما.

أخرجت إيسا نفسها إلى الدرجة السفلى. أشارت إلى نقش عتّت الطحالب نصفه، فركع رائف ومسحه بقطعة قماش مبللة. قارن ما ظهر بالورقة، وأدارها قليلًا.

«هي العلامة نفسها.»

مرّر أصابعه على الخط المحيط بها. توقف عند موضع امتد فيه الحجر أملس بلا فاصل.

قرّب وجهه، ثم انتقل إلى الجانب الآخر.

«النقش لا ينتهي هنا. هناك جزء طُمست حدوده.»

وضع نائل كفه في الموضع الذي حدده.

كان الحجر بارِدًا. أحس أولًا بضغط مبهم خلف راحته، كأن كتلتين تدفع إحداهما الأخرى. أغمض عينيه، فامتد الإحساس إلى اليسار ثم انقطع، وعاد من جهة أعمق. طرق متداخلة، أو بقايا طريق لم يعد يعرف كيف يتصل بنفسه.

رفع يده.

«يوجد شيء خلفه.»

نزلت إيسا درجة، وأمسكت بالحافة.

«سأفحصه من الأسفل. قد تكون الفتحة تحت الركام.»

راقبها حتى غمر الماء كتفيها، ثم وضع طرف العصا حيث كانت راحته.

انتقلت الرجفة إلى المعدن.

شدّ أصابعه عليه، فتراجع التشوش شيئًا فشيئًا. أحس خطًا دقيقًا يمتد تحت الطرف، يصعد مقدار كف، ثم ينعطف داخل الصخر. حرّك العصا معه. كلما وافق اتجاهه، استقرت الرجفة؛ وإذا انحرف، اهتز المعدن بين يديه.

فتح عينيه.

كان رائف يتابعه.

«وجدته؟»

لم يجب نائل. أعاد الحركة، أبطأ هذه المرة، وتوقف عند الانعطاف نفسه. لم يكن يرى الطريق، لكنه صار يعرف أين يضع الطرف ليتبعه.

فوقهما، تغيّرت زاوية حبل الثقل.

قال أوران:

«رائف، عد إلى السفينة.»

رفع رائف رأسه، فرأى الحبل يميل. طوى الورقة وأدخلها تحت ثوبه، ثم صعد ليساعده.

ظهر وجه إيسا قرب الدرجة السفلى.

«هناك قوس تحت »

حملتها دفعة ماء إلى جانب النتوء. أمسكت بالصخر، واختفى فمها لحظة ثم عاد. تحرك حبلها فوق الحافة، وانحشر في شق بين كتلتين.

شدّه أوران ليرفع عنها بعض الضغط.

التوى جسدها نحو الحجر.

«أرخه!»

أفلت أوران مقدار ذراع فوًرا. عاد رأسها إلى الخلف، وتمكنت من التنفس. كانت العقدة حول خصرها تشدها من أسفل، حيث غاص الحبل تحت نتوء حاد قبل أن يصعد إلى السفينة.

ركعت على قدم واحدة تبحث عن موضع تثبت فيه الأخرى، لكن الماء دفعها مجدًدا. ضرب كتفها الحجر، وانزلقت يدها.

رأى نائل أصابعها تعود إلى الشق.

قال أوران لرائف:

«أمسك هذا. لا تجذبه.»

أخذ عمود الدفع ومدّه نحو الحبل العالق، محاوًلا رفعه عن النتوء.

اقترب نائل من طرف الحافة. كان الخط الذي شعر به يعبر خلف الموضع الذي تقاوم عنده إيسا، وينتهي في فجوة أهدأ إلى يسارها.

قال:

«هناك ممر يصل إلى الجهة الأخرى.»

لم يرفع أوران عينيه عن الحبل.

«انتظر. ابَق مكانك.»

انزلق طرف العمود عن الصخر. دفع الماء إيسا إلى الأسفل، وابتلع رأسها. بقيت يدها ظاهرة لحظة، ثم اختفت هي أيًضا.

غرس نائل طرف العصا في الخط.

تبع امتداده بعجلة، من الموضع القريب إلى الداخل، يريد أن يفتح كل ما أحس به خلف الجدار. اندفعت الرجفة إلى كتفيه. صرّت أسنانه، وضغط أكثر.

اهتز الحجر تحت قدميه.

سقطت شظايا من أسفل القوس، وتناثر غبار داكن في الماء. انفرج شق رفيع ثم انطبق. رأى نائل إيسا تظهر من جديد، ترفع ساعدها لتحمي رأسها مما يتساقط.

«نائل، توّقف!»

رفع العصا. تراجع الاهتزاز، وبقي في يديه ألم حاد يمتد إلى المرفقين.

كان قد شعر بالطريق كله، فحاول أن يفتحه كله.

على الجزيرة، كم مرة وضع قدمه فوق امتداد رآه واضًحا في ذهنه، ولم يجد تحته ما يحمله؟

نظر إلى الفجوة الهادئة. لم يكن يحتاج إلى المحطة، ولا إلى الطريق الممتد خلفها. احتاج فقط إلى المسافة بين يد إيسا وذلك الموضع.

أعاد الطرف إلى الحجر.

هذه المرة لم يتبع الخط إلى الداخل. رسم انعطافا قصيًرا، وتوقف.

تحرك شيء خلف الصخر.

ثبت قدميه، وأمسك العصا بكلتا يديه. أحس بثقل يستقر على الطرف، فمال بجسده ليحمله. اتسع الشق مقدار إصبع، ثم ظهرت حافة داخلية لم تكن هناك قبل لحظة.

رآها أوران.

ترك محاولة رفع الحبل، وانحنى إلى الأمام. للحظة، عرف وضع الكتفين واليد العليا التي تدير المعدن بدل أن تدفعه. مرّ وجه الملك في ذاكرته، ثم أعاده صوت الحجر إلى الفتى الواقف تحته.

«إيسا! إلى يسارك!»

التفتت بصعوبة.

انفتح وراءها ممر منخفض، عرضه يكفي جسدًا واحدًا. كان الماء يندفع أمامه، بينما بدا الجانب الآخر أهدأ، محميًا بكتلة الصخر.

رأت الفتحة، ومدّت يدها نحوها. شدّها الحبل إلى الخلف.

أخرجت سكينها.

لم تستطع الوصول إلى موضع الانحشار، فوضعت النصل على الحبل قرب خاصرتها. جذبت السكين مرة، ثم ثانية. تناثرت ألياف، وبقي بعضها يقاوم.

ارتجفت ذراعا نائل. بدأ طرف العصا ينزلق عن الخط، فأعاده وهو يضغط كتفه إلى الحجر.

«الآن!»

انقطع الحبل.

حمل الماء إيسا نحو القوس، فضربت الصخر بقدمها ودفعت جسدها إلى الفتحة. اختفت كتفاها، ثم ساقاها.

شعر نائل بالثقل يزداد فجأة. هبطت إحدى ركبتيه إلى الحافة، واحتك طرف العصا بالحجر. بدأ الممر يضيق.

في الجانب الآخر، أمسكت إيسا بدرجة بارزة وسحبت نفسها. انحشر طرف ثوبها بين الحافتين المتقاربتين؛ التفتت، وجذبته بعنف، فتمزق القماش وخرج معها.



انطبق الصخر.

انزلق طرف العصا إلى الماء، وبقي المقبض بين يديه.

حاول رفعها، فلم تستجب ذراعاه.

وصل إليه أوران من السفينة، وثبته من كتفه قبل أن يميل خارج الحافة. أخذ العصا ووضعها على الحجر، فيما ألقى رائف الحبل إلى إيسا من الجهة الأخرى.
صعدت وحدها إلى الدرجة الأولى، ثم أمسكت الحبل وتركتهما يساعدانها في البقية.

جلست على الحافة، تتنفس بفم مفتوح. نزعت بقايا الحبل عن خصرها، ومرّرت أصابعها فوق الموضع الذي ضغطه. كان كمها ممزّقا، وعلى ساعدها خدش ينزّ بالماء والدم.

نظر أوران إلى نائل.

رفع الفتى وجهه، مستعدًا لما سيقوله.

لكن أوران نظر أولًا إلى يديه المرتجفتين، ثم إلى الحجر المغلق. أمسك العصا ووضعها إلى جواره، قريبًا بما يكفي ليراها، دون أن يطلب منه حملها.

تحركت إيسا على الحافة حتى صارت أمام نائل.

«رأيَته من هنا؟»

نظر إلى الموضع الذي انفتح.

«جزءًا منه.»

تتبعت بعينيها الخط القصير الذي رسمه، ثم مدت يدها إليه.

«إذن لا تحاول الباقي اليوم.»

أمسك ساعدها بيد لم تستقر بعد. أعانته على النهوض، وبقيت إلى جواره حتى ثبتت قدماه.

ضربت موجة الدرجة السفلى، وغطّتها.

قال رائف:

«الماء يرتفع.»

كان أوران ينظر إلى داخل التجويف الذي خرجت منه إيسا. جرف التيار الطحالب عن وجه حجر قائم، فظهر جزء من نقش عند مستوى ركبتيه.

انحنى ومسحه براحة يده.

تقرّع الخط إلى ذراعين، انتهى أحدهما عند دائرة صغيرة، بينما استمر الآخر في جانب الحجر.

«علامة اتجاه.»

اقتربت إيسا، وأمسكت كتفه لتثبت نفسها مع الموجة التالية.

نظر من النقش إلى الخارج، نحو كتفين من الصخر يتداخلان على الأفق.

«هذا الامتداد كان يقود إلى المحطة التالية.»

ثبتت إيسا الموضع بعينيها.

«بين الرأسين؟»

«في ذلك الاتجاه. لا أعرف ما بقي منه.»

رفعت نظرها إلى أعلى الصخرة الأقرب، ثم إلى نتوء بعيد وراءها، تحفظ محاذاتهما.

«رأيته.»

سحبهما رائف إلى ناحية السفينة.

كانت الحافة التي وقف عليها نائل قد بدأت تختفي. صعد بمساعدة أوران، وجلس قرب الصاري، فيما تولت إيسا فك الحبل عن الصخرة. سحبه رائف بسرعة، وعاد

أوران إلى الدّفة.

ابتعدوا عن النتوء قبل أن تضربه موجة تغطي درجاته كلها.

على السطح، بسط رائف الورقة وثبّت زواياها. رسم العلامة كما رآها، وعاد إلى إيسا ليتأكد من اتجاه الذراع الممتدة.

وضعت خريطتها إلى جانبه. حددت موضعهم، ثم رسمت خطًا قصيرًا نحو المحاذاة التي حفظتها بين الصخرتين. أبقت نهايته مفتوحة.

كان نائل يراقبهما، ويداه مستريحتان فوق ركبتيه. كلما حاول ثني أصابعه، ارتجفت من جديد.

اقتربت إيسا بالخريطة، وجلست حيث يستطيع رؤيتها.

أشارت إلى الخط.

«سنفحص هذا حين تستعيد قوتك.»

نظر إلى العلامة الجديدة، ثم إلى البحر خلفها. لم يعودوا يحملون موضع العثور على القارب وحده؛ صار لديهم اتجاه يخرج منه.

إلى جواره، كانت العصا المعدنية ساكنة على الألواح. تركها مكانها، وانحنى فوق الخريطة.

لم تستقر الورقة تحت يد نائل.

حاول تثبيت زاويتها على الصندوق، فارتجف إبهامه وانثنت الحافة. وضع فوقها قطعة خشب، وترك يده إلى جانبه قبل أن يلاحظ رائف.

كان الصباح قد أضاء رأسي الصخر أمامهم. من الموضع الذي حفظته إيسا بالأمس بدوا كتلة واحدة، لكن المسافة بينهما اتسعت كلما تقدمت السفينة، حتى ظهر شريط من البحر يمتد إلى أفق خالٍ.

وقفت إيسا قرب المقدمة، تتنقل بعينيها بين الماء ورسم رائف. بقي أثر الحبل داكنًا عند جانب خصرها، ولفت ساعدها المخدوش بقطعة قماش نظيفة. لم تنزل إلى الماء.

«خفّف الشراع.»

استجاب رائف، فيما أدار أوران الدفّة قليلًا.

أشارت إلى خط من الزبد يعبر أمامهم.

«انظروا إلى ما وراءه.»

كانت الموجات تأتي من جهة البحر المفتوح، لكنها حين تبلغ المسافة بين الرأسين تنحرف إلى الجانب. خلف الخط، تحرك الماء في الاتجاه المعاكس، هادئًا، كأنه ينساب بمحاذاة شاطئ لا يرونه.

أخرج أوران البوصلة.

توقفت الإبرة نحو الماء الهادئ.

«هذا اتجاهها منذ الفجر.»

اقترب نائل من المقدمة، ووضع يده السليمة على الحافة. أحس دفء الختم من خلال غلافه قبل أن يخرجه.

قالت إيسا:

«التيار يدخل هناك. لكن لا نعرف أين يخرج.»

تقدمت السفينة ببطء. ظهرت تحت الماء بقع فاتحة، ثم اتصل بعضها ببعض لحظة انحسار موجة. انحنى رائف، محاوِلًا تتبعها. كانت تشبه امتدادًا من الحجارة يقود إلى الفجوة بين الرأسين.

رفع يده لأوران.

«لا تتبعه.»

ثبت أوران الدفّة.

انتقل رائف إلى الجانب الآخر. أغمض إحدى عينيه، ثم عاد إلى المقدمة.

«الأثر ينتهي قبل الفجوة. ما بعده لا يتصل به.»

نظر نائل إلى البقع الفاتحة. بدت له متقاربة، لكن إحساس المسار تحتها كان متقطّعًا؛ يضغط في صدره ثم يزول، ويعود من جهة أخرى.

قال رائف:

«هناك امتداد إلى اليمين. لا أراه كله.»

مالت إبرة البوصلة حين أدخلها أوران في ظل الشراع، ثم استقرت. قارن اتجاهها بما أشار إليه رائف.

«إيسا؟»

راقبت انحناءة الزبد.

«يمكنني إدخال السفينة إلى جانبه. نبقى خارج الماء الهادئ.»

طووا مزيدًا من الشراع. أخذت السفينة تنحرف عرَضا، حتى صار خط الزبد بمحاذاتها. لم تكن هناك دوامة ولا صخور ظاهرة؛ ماء صافٍ على مسافة ذراعين، ساكن أكثر مما ينبغي.

أخذ رائف حبًلا قصيرًا، وربط في طرفه ثقًلا صغيرًا.

«سأرى إن كان يمتد تحتنا.»

أرخاه من الجانب، ثم أرجح الثقل فوق خط الزبد. غاص في الماء الهادئ، وانشدّ الحبل دون مقاومة واضحة.

راقب رائف موضع دخوله. لم يتحرك مع السفينة.

جذبه.

ظهر الثقل أوًلا، ثم الطرف المبتل. عند الحد الفاصل بين الماءين تغيّر لون الألياف؛ صار الحبل رماديًا، وانفرطت خيوطه تحت أصابع رائف.

توقف عن السحب.

شدّ قليًلا، فانقطع الطرف وسقط الثقل. بقي بين يديه جزء مهترئ، يتفتت عند ثنيه، بينما ظل الحبل فوقه متينًا كما كان.

اقتربت إيسا، ومدّت يدها نحوه. لم تلمسه. بقيت تنظر إلى الموضع الذي تبدلت فيه الألياف، ثم سحبت يدها إلى خصرها.

أبعد أوران رائف عن الحافة.

«لا تمدوا شيئًا آخر.»

وضع رائف الحبل على السطح. لم يسأله أحد عما حدث له.

رفع نائل عينيه إلى الماء. كان يستطيع أن يقذف إليه حجرًا من موضعه، وأن يعبر المسافة سباحة في أنفاس قليلة. عند ذلك الخط، لم تعد المسافة وحدها ما يحتاج إلى حسابه.

فتح غلاف الختم.

انتشر الدفء في راحته. لم يحمل هذه المرة ذلك الاندفاع الذي أحس به عند الصخر؛ جاء الإحساس أعمق وأهدأ، يشده إلى نقطة قريبة لا يستطيع تثبيتها بعينيه.

تطلع أوران إلى القطعة، ثم إلى الماء وراءها.

«لسنا مضطرين إلى العبور اليوم.»

قال نائل:

«لن أعبر. أريد أن أعرف أين يتصل.»

نظر إلى إيسا.

«هل تستطيعين إبقاء السفينة هنا؟»

ذهبت إلى الحبل الجانبي، واختبرت شدّه.

«ما دمنا خارج ذلك الخط.»

التفت إلى رائف.

«دلّني على آخر ما تراه.»

وقف رائف بجواره، ومدّ إصبعه نحو بقعة صغيرة بين موجتين.

«هناك. بعد الحجر الفاتح، وقبل أن ينعطف الزبد.»

وضع نائل الختم فوق الخشب، وأبقاه تحت كفه. أمسك العصا بيده الأخرى، لكنه لم يرفعها. أسند طرفها إلى الحافة، وحرّكه ببطء نحو الاتجاه الذي حدده رائف.

عادت الرجفة إلى أصابعه.

توقف حتى هدأت.

كان يستطيع أن يشعر بامتداد أبعد، يمر وراء الرأسين ويغيب في عمق لا يعرفه. تركه. بحث عن المسافة الصغيرة أمام السفينة، عن طرف يلتقي بطرف.

تحركت البوصلة.

قال رائف:

«إلى اليسار قليلًا.»

عدّل نائل طرف العصا.

انقطع الزبد أمامهم في موضع واحد.

لم ينفتح البحر. ظل الماء في مكانه، لكن الرأس البعيد بدا كأنه فقد جزءًا من حافته. ظهر وراءه خط قائم، أدق من أن يكون صخرًا، ثم انبسط فوقه سطح حجري مستوٍ.

شدّت إيسا الحبل.

«السفينة تتحرك.»

ثبت أوران الدفة.

«أبقها على جانب التيار.»

اتسع الخط.

ظهرت نافذة.

كانت عالية وضيقة، محفورة في بناء داكن يمتد أسفله إلى مكان حجبته المياه. إلى جانبها برزت شرفة صغيرة، سقط جزء من حاجزها، وبقي عمود واحد يرفع سقفها.

ترك أوران الدفة مقدار خطوة، ثم عاد إليها.

«برج الحرس الغربي.»

لم يكن صوته مرتفعًا، لكنهم سمعوه جميعًا.

«كنت أقف في تلك الشرفة حين »

توقفت الكلمات.

حدّق في العمود الوحيد، ويده تقبض على الخشب حتى برزت عروقها.

داخل النافذة ظهر ضوء.

لم يكن انعكاس الشمس؛ اشتعل في عمق الغرفة، وارتجف حين مرّ أمامه ظل لم يتبينوه.



تحركت يد نائل نحو الشريط على معصمه. لم يستطع ترك الختم، فاكتفى بملامسة العقدة بإبهامه.

دقّ جرس.

جاء الصوت من تحت الماء، عميقًا، وانتقل عبر بدن السفينة إلى أقدامهم. تبعته دقة ثانية، ثم أخرى.

رفعت إيسا رأسها.

كانت تعرف ذلك الصوت.

مضت الدقات حتى السابعة، وبقي صداها معلّقًا بين الرأسين. وفي اللحظة التي اتصل فيها الخط تحت طرف عصا نائل، جاءت الثامنة.

بعيدًا وراءهم، بلغ الرنين أحواض ميرازا. رفع رجال الميناء وجوههم عن الحبال، وسكنت مجاديف قرب موضع الجرس الغارق.

على السفينة، لم يلتفت أحد إلى الخلف.

اتسعت النافذة قليلًا. رأى نائل إطارها من الداخل، ورأى الضوء يقع على جزء من الجدار. أحس المسار يشده أبعد، يدعوه إلى متابعة الخط الذي بدأه.

اهتزت العصا في يده.

هذه المرة رفع طرفها بنفسه.

انكمشت صورة البرج. مرّت الموجة التالية في موضع النافذة، وعاد الرأس الصخري متصل الحافة، لا يظهر خلفه سوى الأفق.

تنفس نائل بحدة، وأزاح كفه عن الختم.

أمسك رائف العصا قبل أن تنزلق.

بقي أوران ينظر إلى الموضع الخالي.

قالت إيسا:

«رأيت المدخل.»

التفتوا إليها.

أشارت إلى انحناءة الماء التي ظهرت تحت البناء.

«حين اتصل الطريق، انعطف التيار خلفه. ليس علينا دفع السفينة عبر الماء الساكن كله. هناك مجرى يدخل من الجانب.»

وضع رائف العصا على السطح.

«والانقطاع يبدأ قبل البرج. أستطيع تحديده إذا ظهر الأثر مرة أخرى.»

جلس نائل على الصندوق. لم ترتجف ذراعاه كما حدث عند المحطة، لكن الألم عاد إلى قبضته.

نظر إليه أوران.

«أغلقته قبل أن يفلت منك.»

أجاب نائل وهو يبسط أصابعه:

«عرفت أنني لن أحتمل أكثر.»

اقتربت إيسا من الحبل المهترئ على السطح. دفعته بقدمها بعيدًا عن الحبال الصالحة، ثم انحنت وأخذت حبلًا طويلًا من جوار الصاري.

«كم تحتاج قبل أن تحاول؟»

نظر نائل إلى يده، لا إلى البحر.

«حتى أستطيع الإمساك به دون أن يسقط.»

جلست إيسا على الحافة، والحبل في حجرها.

انتظروا.

بعد ساعة، حين خفّ الألم وثبتت قبضته، رفع نائل الختم من جديد. لم يتجه أوران إلى الدّفة مباشرة.

أخذ الحبل من إيسا، ومرّره حول خصره. عقده، وجذب طرفيه ليتأكد من ثباته، ثم ترك مسافة تكفيه لبلوغ العجلة.

مدّ بقيته إلى رائف.

فهم نائل قبل أن يتكلم أحد.

نظر إلى الحبل الذي أكله الزمن، ثم إلى كفه حول الختم.

قال أوران:

«حين خرجت مع أبيك، لم أفلت يده. الحبل وحده لا يحمينا. الختم يحمي من يتصل به، والحبل يبقينا متصلين.»

ربط رائف الحبل حول خصره. وقفت إيسا، وسحبت الجزء التالي إليها. اختبرت الألياف بعناية، ثم أحكمت عقدتها.

بقي الطرف الأخير عند نائل.

أعانته إيسا على تمريره، وتركت له أن يشده بنفسه. بعد ذلك وضعت يدها فوق العقدة وجذبتها مرة، كما فعلت بعقدتها.

قال أوران:

«نبقى متصلين. إن قلت توّقفوا، نتوقف جميعًا.»

ذهب إلى الدّفة، وتوزعوا في مواضعهم ضمن المسافات التي يسمح بها الحبل. وقف رائف حيث يستطيع رؤية انقطاع الأثر، وبقيت إيسا قرب الجانب الذي يدخل منه التيار.

في الوسط، أحاط نائل الختم بكفه، وأخذ العصا بيده الأخرى.

امتد حبل واحد بينهم، مرتفعًا قليلًا عن ألواح السفينة.

أمامهم، كان الضوء وراء النافذة قد اختفى.

لكنه لم يعد مجهول الموضع.

تحركت السفينة نحو الموضع الذي اختفى فيه البرج.

بقي الحبل مرتخيًا بين الأربعة. عند كل خطوة كان نائل يشعر بشدّة خفيفة عند خصره، فيرفع عينيه ليتأكد من مواضعهم. أوران عند الدّفة، ورائف إلى يمينه، وإيسا قرب المقدمة، تراقب الماء الذي يسير عكس الموج.

أحاط الختم بكفه، وأسند العصا إلى حافة السفينة.

قال رائف:

«لم نبلغه بعد.»

أبقى نائل الطرف ثابتًا. مرّت بقعة الحجر الفاتح تحت الجانب، ثم اختفت في ماء أغمق. أحس بالمسار ينحرف عنها، فقاوم رغبته في اتباع ما تراه عيناه.

رفع رائف يده.

«هنا.»

حرّك نائل العصا قليلًا.

انقطعت رغوة الموج أمام المقدمة، وظهر طرف الشرفة بين الرأسين. هذه المرة لم يتوقف ليتأملها. أبقى نظره على المسافة الأقرب، حيث يحتاج الخشب الذي يحملهم إلى طريق.

أشارت إيسا إلى اليسار.

«خذها بمحاذاة الزبد. لا تدخل وسط الماء الساكن.»

أدار أوران الدّفة. مالت السفينة، وتحرك الحبل فوق الألواح. تقدم نائل خطوة كي لا يشدّه ابتعاد المعلم، ثم ثبت قدميه.

ظهر البرج كامل الارتفاع، لكن أسفله بقي مقطوعًا عند سطح البحر. مرّت موجة عبر موضع قاعدته، ولم تصطدم بشيء.

قال رائف:

«الجزء القريب ما زال منفصلًا.»

أحس نائل به؛ امتدادان متجاوران لا يلتقيان، وبينهما ثقل يضغط على طرف العصا. لو دفع أكثر، لامتدت الرجفة إلى ذراعيه كما حدث عند المحطة.

رفع الطرف قليلًا، وأعاده إلى موضع أقرب.

اتصل الخط تحت المقدمة.

اصطدم الماء بقاعدة البرج.

سمعوا ارتطامه بالحجر، ورأوا الزبد يتكسر حوله. انعطف التيار إلى الجانب، فشدّت إيسا الحبل الذي تضبط به الشراع.

«الآن. معها.»

دخلت المقدمة.

مرّت رجفة قصيرة في بدن السفينة، من الأمام إلى موضع قدمي نائل. احتك الختم براحة يده، فشدّ قبضته عليه. لم يلتفت إلى المؤخرة ليرى مقدار ما بقي خارجًا.

كان المدخل أمامه يتراجع كلما تقدموا، كأن عليه أن يكتشف المسافة نفسها مرة بعد مرة.

«إلى يمينك»، قال رائف.

عدّل نائل اتجاه العصا.

أسرعت إيسا إلى الجانب الآخر، فتوتّر الحبل عند خصره. توقفت قبل أن تشدّه أكثر، ومدّت ذراعها إلى الحبل المطلوب بدل أن تخطو.

رآها أوران، وأمال الدفة ليمنحها ما تحتاج إليه.

اتسع المجرى.

ارتفع البرج فوقهم حتى خرج أعلاه من مجال رؤية نائل. ظهرت على حجارته شقوق دقيقة، وفي أسفله حلقات صدئة كانت القوارب تُربط بها. بلغوا ظل الشرفة المكسورة، وعبر فوق سطح السفينة ببطء.

لم ينظر أوران إلى النافذة.

كان يتابع المؤخرة.

اقترب خط الزبد منها، والتّف حول طرفها الأسود. أصدر الخشب صريرًا عميقًا، فشدّ نائل ذراعه، لكن أوران رفع كفه.

«ثبّت ما فتحته.»

أبقى العصا مكانها.

اجتازت المؤخرة الخط.

خفّ الثقل فجأة، وكاد اندفاع ذراع نائل يحمل الطرف بعيدًا. أوقفه عند الحافة، وبقي واقفًا، ينتظر رجوع الضغط.

لم يرجع.

تحرك الحبل بينه وبين رائف، ثم استرخى على الألواح.

أشار أوران إلى يده.

أنزل نائل العصا ببطء، وأبقى الختم في قبضته.

لم يتكلم أحد.

تجاوزوا البرج.

تغير وقع الماء على الخشب. صار أهدأ، متباعدًا، وانخفض الرذاذ حتى لم يعد يبلغ وجوههم. مرّ الضوء فوق الشراع، وأضاء مواضع كانت غارقة في الظل قبل لحظة.

قرب الدّفة، استقرت إبرة البوصلة.

راقبها أوران وهي تبقى في اتجاه واحد. أبعد أصابعه عن حافتها، وعاد ينظر أمامه.

انفرجت الصخور عن خليج واسع.

في طرفه امتدت أرصفة حجرية، بعضها منخفض حتى كاد الماء يغطيه، وبعضها تعلوه أعمدة تحمل بقايا سقوف خشبية. خلفها صعدت البيوت على سفح متدرج، تتقارب ثم تنفتح بينها مساحات من الضوء. قنطرة تصل بين واجهتين. درج

طويل ينحني وراء جدار. شجرة مائلة فوق سطح صغير.

عرف نائل الشجرة.

رآها في دفتر أبيه، مرسومة بخطوط قليلة قرب نافذة.

هنا كانت أغصانها تتحرك.

رفع رأسه. امتد الشارع وراءها إلى أعلى المدينة، حيث ظهرت أبراج القصر. بقي بعضها قائمًا، وغاب جزء من أحدها خلف فجوة واسعة في السور. وعلى منحدر أقرب، رسمت صفوف الزرع مساحات ضيقة بين البيوت والجدار الخارجي.

رفع أوران عينيه إلى القصر. انفتحت أصابعه عن الدّفة، وبقي بصره عند الفجوة في السور.

لم تشبه المدينة أطلال الموضع الذي أخذه أوران إليه.

تصاعد دخان رقيق من سقف. تدّلى قماش بين نافذتين. عند طرف الرصيف وقف قارب صغير، تتأرجح مقدمته مع الماء.

تابعت إيسا الدخان حتى تلاشى فوق السقف، ثم نظرت إلى نافذة البيت تحته. وإلى جوارها، تتبّع رائف بعينيه حافة السور المقطوعة، ورفع يده يرسم امتدادها في الهواء.



ترك نائل العصا إلى جانبه.

اقترب من الحافة حتى لامسها الحبل عند خصره. نظر إلى النوافذ واحدة بعد أخرى، كأنه يستطيع أن يعرف أيها قد تفتحها فتاة تركت شريطًا حول معصم أخيها منذ زمن.

تحرك شيء عند القارب.

خرج رجل من خلف شراع مطوي، يحمل مجدافًا على كتفه. نزل درجة، ووضعه داخل القارب، ثم رفع رأسه نحو السفينة السوداء.

بقي مكانه.

ارتفعت يده ببطء لتحجب الضوء عن عينيه.

ورآهم.

أنزل الرجل يده عن عينيه، ولم يتحرك عن طرف الرصيف.

اقتربت السفينة السوداء حتى سمعوا احتكاك القارب الصغير بالحجارة. رفع رائف حبل الرسو، ونظر إلى أوران. أشار إليه المعلم، فألقاه.

سقط الحبل قرب قدمي الرجل.

تركه لحظة، وعيناه على السفينة، ثم وضع المجداف والتقطه. لفه حول وتد حجري وشد، فتقدمت المؤخرة قليلا واستقرت بمحاذاة الرصيف.

قال:

«من أين دخلتم؟»

لم يجبه أوران من موضعه. ثبت الدفة، ونظر إلى الختم في يد نائل قبل أن يفك الحبل عن خصره. تبعه رائف وإيسا، وبقي نائل آخرهم. حين تحرر من العقدة، شعر بخفة غريبة، كأنه لم ينتبه إلى ضغطها إلا بعد زواله.

أعاد الختم إلى غلافه.

رفع أوران حجاب السنين قبل أن ينزل.

تراجع الرجل خطوة ليترك له موضعا، ثم ضاقت عيناه. كان أقصر من أوران بقليل، عريض الكتفين، وقد بقيت في وقفته صلابة لم يبددها عمل البحر.

نظر إلى وجه القادم، ثم إلى يده حين استقرت على حافة الرصيف.

«أوراس؟»

توقف نائل فوق السلم.

التفت أوران إلى الرجل بكامل جسده.

«كنت تحرس هذا المرسى.»

لم تكن سؤالًا.

فتح الرجل فمه، وأغلقه. ّمد يده، فقبض على ساعد أوران، ثم رفع الأخرى إلى كتفه كأنه يحتاج إلى التأكد من وجوده.



«رأيت السفينة، لكنني »

تأمل الشيب قرب صدغيه، والخطوط التي عمقت وجهه.

«ماذا حدث لك؟»

بقي أوران ينظر إليه.

«وأنت ما زلت هنا.»

أفلت الرجل كتفه، ونظر خلفه إلى السلم. نزل رائف، ثم إيسا. وحين وطئت قدما نائل الرصيف، انتقلت عينا الحارس إلى وجهه وبقيتا عليه.

رفع رأسه نحو السفينة مرة أخرى.

«أين الأمير؟»

سكن أوران.

تحركت يد نائل فوق الحقيبة التي تضم الدفتر، لكن المعلم أجاب قبل أن يتكلم:

«أين أليثا؟»

تبدلت ملامح الرجل.

«في الدار العليا.»

«خذنا إليها.»

لم يترك الحارس السؤال.

«هل هو معك؟»

نظر أوران إلى الطريق الصاعد بين البيوت.

«سأقوله لها أوّلا.»

انخفضت يد الرجل عن الحبل. عاد ينظر إلى نائل، ثم التقط المجداف وألقاه داخل قاربه.

«انتظرناكما.»

لم يرفع صوته، ولم يبُد أنه يقصد اتهامًا. قالها وهو يشد عقدة الرسو، كأنها شيء ظل عالقًا في هذا الموضع طوال غيابهما.

انحنى أوران والتقط طرف الحبل المتدلي إلى الماء، ووضعه فوق الرصيف.

«أعرف.»

استقام الرجل.

«لا. لا أظنك تعرف.»

مضى نحو الدرج، فلحقوا به.

كانت الحجارة تحت قدمي نائل جافة ودافئة. نظر إلى أسفل، إلى قدمه فوق الرصف، ثم إلى النافذة القريبة التي تدلّى منها قماش أزرق. خلفها طرق خفيف، متتابع؛ شخص يصلح شيئًا داخل بيت.

لم يكن عليه أن يبقي الختم في يده كي تظل النافذة موجودة.

عند أول منعطف، مرّت امرأة تحمل سلة من الخضار. تنحت عن الطريق، ثم توقفت حين رأت أوران. تابع الحارس صعوده، لكنها بقيت خلفهم، والسلة معلقة في ذراعها.

قالت اسمه بصوت خافت.

لم يلتفت.

نظر نائل إلى الحارس.

«كم مضى منذ غادر؟»

أبطأ الرجل، كأن السؤال غريب.

«اثنا عشر عامًا.»

توقفت قدم نائل قبل الدرجة التالية.

نظر إلى أوران. كان المعلم قد رفع رأسه إلى البيوت، يتفحص الشقوق التي رُممت وأبوابًا تغيّرت مواضعها، ثم أعاد نظره إلى الفتى.

قال بصوت لا يصل إلى الحارس:

«الاضطراب عند الحافة. هنا مرّت السنوات أبطأ، لكنها مرّت.»

تابع نائل الصعود.

اثنا عشر عامًا.

في الخارج، قامت ممالك على حكاية محوها، وتعاقبت أسر وملوك، وصار اسمها فراغًا في الخرائط. هنا، كان الرجل الذي ربط سفينتهم يتذكر يوم رحيل أوراس، وينتظر جوابًا لم يصله.

وصلوا إلى مساحة انفتح فيها الشارع على أرض مزروعة. امتدت خطوط خضراء بين جدارين، وفي طرفها ركعت فتاة تنزع الحشائش حول ساق نبات. قربها رجل يصلح قناة ضيقة بأصابعه، فيعيد الماء إلى مجراه كلما تسرب من شق.

أشار الحارس إلى طريق جانبي ليتجنبوا الأرض.

«كنا نمر من وسطها. أليثا أمرت بزراعتها.»

نظر أوران إلى طرف الجدار.

«كانت هنا ساحة.»

«وما زال الناس يحتاجون إلى الأكل.»

صعد الرجل دون أن ينتظر تعليقًا.

مرّ رائف بجانب حجارة رُصّت لتغلق زقاقًا. رفع عينيه إلى أعلاها؛ لم تكن بقايا انهيار، بل جدارًا أحدث من البيوت حوله. أبقى يديه إلى جانبيه وتابع السير.

كانت إيسا تمشي قريبًا من نائل. عند كل فتحة بين الأبنية تنظر إلى البحر، تحدد موضع السفينة والمسافة التي ابتعدوا عنها. لكنها حين سمعت طفلًا ينادي من سطح، رفعت وجهها.

كان يلوح لامرأة في الشارع ويحمل رغيفًا كسرت منه قطعة.

ظلت تنظر إليه حتى دخل خلف الباب.

أمامهم توقف الحارس عند مفترق.

نظر إلى أوران طويلًا، ثم قال:

«كنا نغلق البوابة عند الغروب ونترك من يراقب البحر. في البداية كل ليلة. بعد ذلك »

أشار بيده إلى حارس شاب يقف تحت قنطرة أعلى الطريق.

«بعض الذين ينتظرونك الآن لم يعرفوك إلا من كلامنا.»

كان الشاب قد لاحظ المجموعة. تقدم خطوتين، وعينه على سلاح أوران، لكن حارس المرسى رفع يده.

«هؤلاء معي.»

«إلى أين يا وثيق؟»

«إلى أليثا.»

نظر الشاب إلى الوجوه، وتوقف عند نائل لحظة، ثم عاد إلى وثيق.

«هل أسبقكم لأخبرها؟»

تدخل أوران:

«قل إن رجلًا من حرس أبيها يريد لقاءها. لا تقل أكثر.»

تطلع الشاب إلى وثيق، ينتظر تأكيده.

أومأ، فانصرف الشاب صاعدًا.

تابعوا الطريق.

كانت الدار العليا أقرب إلى القصر مما ظن نائل، لكنها لم تكن داخله. بناء واسع، منخفض نسبيًا، أُصلحت إحدى زواياه بحجارة تختلف عن بقية جدرانه. عند مدخله جلس رجلان فوق مقعد، وبينهما لوح خشبي وضعت عليه قطع من القماش المطوي. نهضا حين اقترب وثيق، فطلب إليهما الانتظار.

من داخل الدار جاء صوت امرأة:

«أصلحوا مجرى الحي أولًا. السقف يحتمل حتى ينتهي الماء من التسرب.»

توقف أوران عند العتبة.

كان نائل خلف كتفه مباشرة. رأى يده ترتفع قليلًا، ثم تستقر على الخشب دون أن تدفع الباب.

خرج الحارس الشاب.

«تقضلوا.»

دخل أوران.

أزاح نائل الشريط عن حافة كمه قبل أن يلحق به.

كانت أليثا واقفة عند طرف المائدة، تثبّت ورقة بحجر صغير بينما يشير رجل إلى خط مرسوم عليها. رفعت رأسها عند فتح الباب.

وقعت عيناها على نائل.

بقيت يدها فوق الحجر. تحركت شفتاها، وتقدمت نصف خطوة، ثم انتقل بصرها إلى الرجل الذي يقف أمامه.

رأت وجه أوران.

نظرت إلى الشيب عند صدغيه، وعادت إلى نائل.

لم تقل شيئًا.

كان نائل يتوقع امرأة أكبر. وجد شابة لا تفصله عنها إلا سنوات قليلة، شعرها مجموع خلف رأسها، وكما ثوبها مرفوعان إلى المرفقين. بقي على أحد أصابعها أثر حبر، وفي حزامها غمد قصير أنهكه الاستعمال.

أبعد الرجل يده عن الورقة.

«نكمل حين »

رفعت أليثا كفها دون أن تنظر إليه.

جمع أوراقه وخرج. تنّحى وثيق عن الباب ليمر، ثم بقي عند العتبة. إيسا ورائف وقفا إلى جانب الجدار، تاركين المسافة بين المائدة والقادمين خالية.

قالت أليثا:

«أوراس.»

انحنى رأس أوران قليلًا.

«أليثا.»

نظرت خلفه، نحو الباب الذي بقي مفتوحًا.

«أين أخي؟»

لم يحاول الاقتراب.

«نجا من تلك الليلة. خرج معي، وعاش خارج أثيرا.»

انقبضت أصابعها فوق حافة المائدة.

«أين هو؟»

«مات.»

ظل صوت رجل في الخارج يصل من وراء الباب، يسأل عن ألواح خشب. تحرك وثيق وأغلقه، فانقطع الصوت في منتصفه.

رفعت أليثا يدها عن المائدة، لكنها أعادتها إليها فورًا.

«متى؟»

«قبل أن يولد ابنه.»

انتقلت عيناها إلى نائل.

نظر إليها، ولم يعرف أين يضع يديه.

قال أوران:

«هذا نائل.»

لم تتحرك.

«ابن أخيك.»

نظرت إلى وجه الفتى طويلًا، كأنها تحاول إبعاد اسم عنه ووضع اسم آخر مكانه.

«كان في عمرك حين خرج.»

خفض نائل رأسه قليلًا.

خطت أليثا إلى جانب المائدة. توقفت أمام أوران، قريبة بما يكفي لترى الندبة التي قطعها ظل لحيته.

«اثنا عشر عامًا.»

بقي واقفًا.

«في الليلة الأولى قالوا إنك ستعود قبل الصباح. ثم قالوا إن الطريق انقطع، وإن عليك أن تجد طريقًا آخر. كنت أترك باب غرفته مفتوحًا.»

ضغطت إبهامها على أثر الحبر في إصبعها.

«بعد سنة نقلوا أغراضه. أعدتها.»

لم يجب.

رفعت وجهها إليه.

«أخذته أنت.»

«أوصاني أبوك بإنقاذه والختم إذا تأكدت الخيانة. عند الخريطة لم يبق وقت »

«وأنا؟»

توقف.

«هل سأل أحد أين كنت؟»

بقي أوران أمامها، ويداه إلى جانبيه.

انتظرت.

كان الضوء قد بلغ طرف حذائه، وظهر الغبار العالق في ثنية ثوبه. لم يرفع عينيه إلى وثيق، ولم ينظر إلى نائل طلبًا لكلمة تنقذه من السؤال.

قالت أليثا:

«كنت خلف باب لا يفتح. سمعت الناس يركضون، ثم لم أعد أعرف الأصوات. حين أخرجوني، لم يكن أبي هناك. ولم يكن أخي. وأنت أيضًا لم تكن.»

تحركت يد أوران، ثم استقرت.

«لم أصل إليك.»

أدارت وجهها عنه.

عادت إلى المائدة، لكن عينيها لم تذهبا إلى الأوراق. كان نائل أمامها، يحمل حقيبة قديمة ويقف كما يقف من دخل بيتًا لا يعرف إن كان له حق البقاء فيه.

«عاش؟»

أجابها أوران:

«نعم.»

«وتزوج.»

«نعم.»

نظرت إلى نائل، فتراجعت خطوة عن حدّة صوتها، ثم سألت أوران:

«هل حاول العودة؟»

«حاول.»

«كل هذه السنوات؟»

رفع نائل رأسه.

كانت تنظر إلى معلمه، لكن السؤال وصل إليه هو.

«هل نسَينا؟»

أمسك نائل بحزام حقيبته.

«لم ينَسكم.»

التفتت إليه.

فتح الحقيبة، وأخرج الدفتر. تحرك نحو المائدة، لكن الورقة الموضوعة عند طرفها انزلقت مع احتكاك حقيبته. مدّت أليثا يدها لتلتقطها، وقد ارتجفت أصابعها.

سبقها نائل، وأعاد الورقة تحت الحجر.

«اجلسي. لا يلزم أن تصلحي كل شيء الآن.»

بقيت تنظر إلى يده فوق الحجر، ثم رفعت عينيها إلى وجهه. تبدّل فيهما شيء، كأنها رأت أحدًا آخر يقف مكانه. ارتخت أصابعها، وجلست.

وضع نائل الدفتر أمامها وفتحه، ثم أدار الصفحات نحو الضوء.

ظهر الشارع أولًا، والقنطرة بين البيتين. قرب أسفل الصفحة كتب أبوه اسم الموضع بحروف متقاربة.

اقتربت أليثا دون أن تمد يدها.

«هذا خطه.»

قال نائل:

«كانت أمي تحتفظ بأوراق كتبها. عرفته منها.»

لم تسأله عن أمه. بقيت عند السطر، تتبعه بعينيها حتى نهايته، ثم وضعت إصبعها على طرف الورقة وقلبتها.

ظهر الدرج.

رُسم مرة في وسط الصفحة، وأعيد في الهامش، ثم امتد رسم ثالث فوق موضع مُسح حتى رقّ الورق. وقفت إصبعها عند الدرجة التي شطبها أبو نائل.

«كان يخطئ فيها.»

نظر إليها.

«الدرجة عند المنعطف أعلى من البقية. كان يتعثر بها إذا نزل مسرعًا.»

مرّرت إصبعها تحت الرسم الثالث.

«هنا تذكّرها.»

قلبت الصفحة.

في زاويتها طفلة على شرفة، تمسك قطعة خبز بكلتا يديها. لم يُكمل الرسام تفاصيل الثوب، لكنه أعاد خط الشعر قرب الخد، وثبت موضع القدمين خلف الحاجز.

توقفت يد أليثا.

رفعت الورقة قليلًا لتقربها من وجهها، ثم أعادتها إلى المائدة. لامست بإصبعها رأس الطفلة، دون أن تمرره فوق الحبر.

لم يقل أوران شيئًا.

كان نائل واقفا إلى جانب المقعد، يرى الرسم معها. لم يحتج إلى أن يسأل من تكون.

أعادت أليثا الصفحة إلى الوراء، ثم رجعت إلى الطفلة، كأنها تتأكد أنها لم تتوهم وجودها.

«احتفظ بهذا كله.»

قال نائل:

«كان في السفينة.»

تحركت يده وهو يشير إلى الدفتر، فانسحب الكم عن معصمه.

رأت الشريط.

ثبت بصرها عليه. تركت الصفحة، ومدّت يدها حتى توقفت أصابعها قرب العقدة.

رفع نائل معصمه إليها.

لامست القماش المهترئ.

«هذا »

بدأ يفك العقدة. استعصت قليلًا، فأعانته بأظافرها، برفق لم يكن في صوتها حين استقبلتهم. انفتح الشريط، وبقي ممدودًا بين كفيهما.

أخذته.

لم ترفعه إلى وجهها. قلبت طرفه، وبحثت عن خياطة صغيرة عند الحافة، ثم ضغطتها بإبهامها.

قامت من المقعد.

قرب النافذة وقف سيف خشبي إلى جانب صندوق منخفض. كان أقصر من السيف الذي في غمدها، وقد اسوّدت قبضته وظهرت على نصله آثار ضربات كثيرة. تناولته، ووضعت طرفه على الأرض.

نظرت إلى أوران.

«بقي هذا.»

ثم عادت إلى الشريط.

لفته مرة حول القبضة. لم يكِف كما توقعت؛ توقفت عند الجزء المهترئ، وأرخته حتى لا يتمزق. ثبتته بكفها ورفعت السيف.



كان خفيفًا في يدها.

قالت لنائل:

«وعدني أن يرى إن كنت أستطيع رفعه حين يعود.»

بقي ينظر إلى القبضة.

«أخبرني أوران.»

«أوران؟»

نظرت إلى الرجل الواقف بعيدًا عن المائدة.

قال: «بهذا الاسم عرفني.»

عادت إلى نائل، وأرخت قبضتها قليلًا حول السيف.

هبط طرف السيف قليلًا.

«تعلمُت رفعه، لكنه لم يعد ليرى.»

انخفض صوتها في آخر الجملة. أبقت السيف مرفوعًا لحظة أخرى، ثم أسندته إلى الصندوق، والشريط حول قبضته.

اقتربت من نائل.

نظرت إلى عينيه، وإلى الشعر الذي سقط على جبينه. رفعت يدها كأنها ستزيحه، لكنها توقفت قبل أن تمسه.

«هل رأيته؟»

هزّ رأسه.

«مات قبل أن أولد.»

بقيت يدها معلّقة، ثم وضعتها على كتفه.

سحبت المقعد المجاور إلى قربها.

«اجلس.»

جلس نائل.

فتحت الدفتر عند رسم الطفلة، ووضعته بينهما. من موضعه، استطاع أن يرى الشرفة المرسومة، والنافذة الحقيقية خلف كتفها، والسيف الخشبي الذي عاد الشريط إلى قبضته أخيرًا.

وقفت إيسا أبعد قليلًا عن المائدة. جمعت يديها أمامها، فيما خفض رائف عينيه عن الدفتر، تاركًا صفحاته لهما.

أما أوران فبقي حيث تلقى سؤالها.

رفعت أليثا وجهها إليه مرة واحدة.

لم تدعه إلى الجلوس.

لكنها لم تطلب منه الرحيل.

أعادت نظرها إلى الصفحة، وقلبتها مع نائل.

«أرني ما رسم أيضًا.»

أغلقت أليثا الدفتر عند آخر صفحة مرسومة، وأبقت كفها فوقه.

كان الضوء قد انتقل عن طرف المائدة. في الخارج، عادت أصوات الرجال الذين ينتظرون جوابها، ومرّت خطوات سريعة أمام الباب ثم ابتعدت. نظر نائل إلى السيف الخشبي قرب النافذة؛ بقي الشريط ملتفًا حول قبضته.

قال:

«تعالي معنا.»

رفعت عينيها إليه.

«في السفينة متسع. نستطيع أن نأخذك، ثم نعود من أجل الآخرين.»

لم تجبه فورًا. نقلت الدفتر إليه، وسحبت من تحت الأوراق لوحًا صغيرًا خُطّت عليه أسماء.

«كم شخصًا تستطيع سفينتكم أن تحمل؟»

نظر إلى أوران.

«لا أعرف. لكننا نستطيع العودة أكثر من مرة.»

وضعت اللوح أمامه. امتدت الأسماء في صفوف ضيقة، وإلى جانب بعضها علامات وأعداد.

«هؤلاء من يحتاجون إلى دواء لا نجده هنا. لم أضع أسماء أطفالهم، ولا من سيعتني بهم في الطريق.»

مرّر نائل عينيه على الصف الأول.

«نبدأ بهم.»

تحرك شيء في وجهها، ثم مدت يدها إلى طرف اللوح.

«لو كان الأمر عدد القوارب، لما بقي أحد منا هنا.»

وقف أوران إلى جانب المائدة. لم يجلس.

قال نائل:

«عبرنا. رأيتُ الطريق ينفتح.»

«عبرتم إلى هنا»، قالت أليثا. «نحن نحاول الخروج منذ اثني عشر عامًا.»

جذب نائل الختم من حقيبته ووضعه فوق الخشب.

«ولم يكن هذا معكم.»



نظرت إليه، ثم إلى أوران.

تابع نائل:

«رأينا الحبل يتآكل عند الحافة. وحين اتصلنا بالختم، مررنا سالمين. أربطك معنا بالطريقة نفسها. إن لم يفتح الطريق، نعود.»

أمسكت أليثا باللوح قبل أن يدفعه حماس الفتى عن المائدة.

«لن أجعل خروج الناس قائمًا على تجربة لا نعرف ما تفعل بهم.»

«قلت إنني سأذهب معك.»

«وأنا سمعتك.»

ثبت نظرها عليه، ولم ترفع صوتها.

«قبل سنوات، خرج رجل من المرسى الغربي. حمل ماءه وطعامه، واختار يومًا لا تعاكسه فيه الريح. ظللنا نراه حتى صار القارب نقطة، ثم اختفى. عند الغروب، وجده وثيق إلى جانب الرصيف الذي انطلق منه.»

نظر نائل إلى الباب. كان وثيق ما يزال واقفًا عنده.

رفع الحارس كفيه، وقلبهما ببطء.

«جلد يديه كان مفتوحًا من المجداف. طلب مني ماء، ثم سألني كيف لحقت به.»

«لم يعرف أنه عاد؟»

«عرف حين رأى البرج.»

أعادت أليثا اللوح إلى مكانه.

«خرج مرة أخرى من جهة ثانية. عاد إلى المرسى نفسه. حاول غيره السير على اليابسة، فاتبعوا طريقًا مستقيمًا حتى نفد زادهم. دخلوا المدينة من البوابة التي خرجوا منها.»

نظر نائل إلى الختم.

كان يستطيع أن يتصور رجلًا يضل الطريق. أما أن يظل الأفق أمامه يومًا كاملًا، ثم يجد الرصيف وراء ظهره، فلم يعرف كيف يضعه في الخريطة التي يحملها في ذهنه.

قال أوران:

«الحافة تضطرب، لكن ما يمسك أهل أثيرا ليس اضطراب الزمن وحده.»

سحب نائل القطعة نحوه.

«الختم يحمي من يتصل به. أنت قلت ذلك.»

«ويحميك إذا عدت إلى الممر. لكنه لا يمحو عن عمتك ما أصابها يوم ُمحيت المملكة.»

تطلع نائل إليه.

«وأنت؟ كنت هنا. وأبي كان هنا.»

وضع أوران يده على حافة المائدة، قريبًا من الختم دون أن يلمسه.

«خرجنا والختم في أيدينا قبل أن يستقر ما فعلوه. من بقي حين استقر المحو صار مرتبطًا بالأرض التي حجبوها. لم يشملني وأباك ذلك الربط؛ لهذا استطعت الدخول معك، وأستطيع العودة.»

بقي نائل ساكتا.

في الخارج، نادى رجل آخر يسأل إن كان عليه نقل الألواح إلى الحي السفلي. نهضت أليثا إلى الباب وأعطته جوابًا قصيرًا، ثم عادت.

لم يتوقف عمل المدينة لأنهم عرفوا سبب عزلتها.

قال نائل:

«إذا فتحتُ لها الطريق نفسه الذي فتحته لنا؟»

«ستفتح ممرًا»، أجابه أوران. «لكنها ستبقى مشمولة بالمحو. الحبل يجمع العابرين بالختم؛ لا يفك ما ربط أهل المملكة بأرضها.»

وضعت أليثا إصبعها على الدائرة المحفورة في القطعة.

«كان أبي يضعه فوق الخريطة، فتستجيب الطرق. ظننت طويلًا أن رجوعه وحده سيكفي.»

خفض نائل عينيه إلى يدها. بقي أثر الحبر على إصبعها، قريبًا من المعدن الذي حمله أبوها.

من عند الباب قال وثيق:

«جرّبنا التعلق بقارب من الخارج أيضًا.»

رفعت إيسا رأسها.

لم تكن قد تكلمت منذ دخلوا الدار.

التفتت إليه أليثا، فتابع:

«جاء رجل إلى الحافة في قارب لم نعرف صنعه. كان ينادي، لكن الموج قطع أكثر كلامه. نزل أحد رجالنا إليه، وربط قاربه بقاربه ليدله على المرسى.»

اقتربت إيسا خطوة.

«متى؟»

«قبل سنوات. لا أذكر عددها.»

«ماذا حدث للرجل؟»

«جذبه التيار إلى الخارج. بقي حبل القاربين مشدودًا حتى اختفيا وراء النتوء.»

أشار إلى البحر خلف النافذة.

«عاد رجلنا وحده إلى المرسى. كان طرف الحبل ما يزال مربوطًا بقاربه، والجزء الآخر مقطوعًا. قال إنه ظل يرى القارب الغريب أمامه، ثم لم يعد يرى إلا برجنا.»

وضعت إيسا يدها على ظهر مقعد رائف.

«هل كان كبيرًا في السن؟»

هز وثيق رأسه.

«لم يكن شيخًا. هذا ما أذكره.»

نظرت إلى أوران، ثم عادت إلى الحارس.

«ووجهه؟»

حاول الرجل أن يستحضره. ضم حاجبيه، وحدّق في موضع على الأرض.

«كنت بعيدًا.»

لم تقل إيسا إنه أبوها. أبقت يدها على المقعد لحظة، ثم سحبته وجلست.

نظر نائل إلى أليثا، وإلى إيسا، ثم إلى الختم بينهما.

قلبه في راحته. كانت القطعة صغيرة بما يكفي ليخفيها في ثوبه، وثقيلة بما يكفي ليشعر بها طوال الطريق. فتح بها باب أبيه، ثم ممرًا إلى هذه المدينة. لم تكن أي من الخطوتين تعني أنه يستطيع أخذ من وجدهم فيها.

رفع وجهه إلى أوران.

«ما الذي يقكه إذن؟»

«القوى التي صنعته.»

«السبع.»

«مجتمعة، مع ختم أثيرا وقدرتك على الرسم. فتح الطريق أتاح لنا الوصول. أما إخراج المملكة من المحو فيحتاج إلى إعادة اتصال أرضها بالعالم، حتى يصبح الطريق ثابتًا لأهلها أيضًا.»

مّد رائف يده إلى الورقة التي رسم عليها اتجاه البرج، وبسطها إلى جانب الختم.

«إذن هذا يكفينا للعودة إلى هنا.»

قال أوران:

«ما دمنا نستطيع العثور على الاتصال وعبوره. لكنه لا يكفي لإخراجهم.»

تأمل نائل الخط القصير على الورقة.

لم يعد يبدو له قليلًا كما كان قبل أن يرى المدينة. عرف الآن إلى أين ينتهي، ومن يجلس عند نهايته وينتظر.

قالت أليثا:

«ومن يحمل هذه القوى اليوم؟»

«الممالك السبع. تحفظها في آثارها الملكية.»

نظرت إلى النافذة، حيث ظهرت فجوة السور فوق السطوح.

«أحفاد الذين فعلوا هذا.»

لم ينكر أوران.

طوت أصابعها طرف الورقة، ثم تركته.

كان نائل يستطيع أن يسمع ما لم تقله؛ أن يخرج من هذا البيت ليطلب من ورثة الذين حاصروه أن يعيدوا إليه ما أخذوه.

نظر إلى رائف وإيسا. كلاهما جاء من تلك الممالك، ووقف معه عند الحافة.

أعاد الختم إلى غلافه، ووضع دفتر أبيه في الحقيبة. هذه المرة لم يغلقها فورًا؛ تأكد أن أطراف الصفحات استقرت دون أن تنثني.

ثم سأل:

«من أين أبدأ؟»

رفعت إيسا عينيها إليه.

«ميرازا.»

قال أوران:

«أثر المياه. هو أقرب القوى إلينا.»

نهضت إيسا.

«سافيرا تستطيع أن تقودنا إليه. لكن الوصول إليها لا يعني أنها ستسمح لنا بأخذه.»

شدّ نائل حزام الحقيبة.

«إذن نطلب أن نراه أوّلا.»

نظر إلى أليثا، فلم يجدها تبتسم. كانت تنظر إلى الختم الذي أخفاه، ثم إلى يده التي استقرت فوقه.

وضعت أليثا لوح الأسماء إلى جانب حقيبته.

«حين تتكلم معهم، تذكّر أن من بقي هنا ليس اسم مملكة فقط.»

قرأ نائل أول اسم، ثم رفع عينيه إليها.

«اكتبي ما يحتاجونه من دواء، ومقداره. سأطلبه في ميرازا وأعود به قبل أن أجمع القوى.»

قال أوران:

«إن استطعنا العثور على الاتصال من جديد.»

«سنبحث عنه. لن أنتظر اكتمال القوى كي أحاول مساعدتهم.»

أحضرت أليثا ورقة، وبدأت تنقل الأسماء، تاركة إلى جانب كل منها فراغا.

«أطلب من المعالج أن يكملها قبل رحيلكم.»

أخرج نائل غلاف دفتر أبيه، وفتحه لاستقبال الورقة.

كان وثيق قد مدّ لوح العبور حين وصلوا إلى المرسى. حمل رائف الحقيبة الأخيرة إلى السفينة، وتبعته إيسا، تتفقد الحبل الممتد على جانبها قبل أن تضع قدمها على الخشب. بقي أوران عند أول اللوح، ينظر إلى الطريق النازل بين البيوت.

أخرجت أليثا الورقة من بين لوحين رقيقين وسلمتها إلى نائل. أضاف معالج الدار أسماء الأدوية ومقاديرها بخط أصغر، ووضع علامات إلى جانب بعضها.

قالت:

«هذه أوّلًا. إن لم تجد البقية، فلا تؤخر ما تجده.»

قرأ الأسماء التي أشارت إليها، وطوى الورقة على أثر الطية القديمة. أخرج دفتر أبيه وأدخلها داخل غلافه، ثم أعاده إلى الحقيبة وشدّ إبزيمها.

كانت تحمل السيف الخشبي بيدها الأخرى، ورأسه إلى الأرض. رفعته بينهما، وأخذت تفك الشريط عن قبضته. علقت إحدى العقد بخيط بارز من الخشب؛ حررته بظفرها وسوّت القماش بين إصبعيها.

مدّ نائل يده.

لفت الشريط حول معصمه مرتين. حين قلبت ذراعه لتبلغ طرفه الآخر، لامست أصابعها الجلد المحمّر الذي تركته العصا. خففت العقدة قليلًا، وأدخلت إصبعًا تحتها لتتأكد أنها لا تضغط عليه.



«أعده إليّ حين تعود لتخرجنا.»

نظر إلى يدها التي بقيت لحظة فوق العقدة، ثم إليها.

«احتفظي بالسيف. حين أعود، أريد أن أرى.»

شدّت قبضتها حول الخشب، وأفسحت له الطريق.

عبر نائل إلى السفينة، ووضع حقيبته تحت المقعد قرب الدّفة. وحين استدار، كانت أليثا قد اقتربت من أوران. توقف أمامها، وعلى كتفه الكيس الذي حمله من الدار.

قالت:

«لا تغب اثني عشر عامًا أخرى.»

أومأ، وصعد.

انحنى وثيق إلى وتد المرسى، ورفع عنه أول لفة. سحب الحبل من الماء وألقاه إلى رائف، فالتقطه وجمعه عند قدميه. دفع الحارس جانب السفينة براحته؛ اتسعت بين الخشب والحجر فجوة ملأها الماء.

أعاد أوران حجاب السنين، ثم حرك الدفة. عند المقدمة، أشارت إيسا إلى المسافة بين قاربي الصيد، وانسابت السفينة عبرها. امتد حبل العبور على السطح، فالتقط نائل طرفه وبدأ يهيئه كما فعلوا عند الدخول. ترك الشريط ظاهرًا فوق العقدة.

مّروا بمحاذاة الدرج الذي صعدوه إلى المدينة. كان رجل يحمل سلة إلى أعلاه، وطفلان يتنازعان مكانًا على حافته ليريا السفينة تغادر. من نافذة مفتوحة وصلت ضربات مطرقة منتظمة؛ ثبت نائل موضع البيت بعينيه، ثم نظر إلى البرج الذي سيهتدون به في العودة.

لامس الحقيبة بطرف قدمه ليتأكد أنها مستقرة.

لم تتحرك أليثا من مكانها. وقف وثيق على بعد خطوات منها، والحبل المبتل يترك خطًا داكنًا فوق الرصيف. رفعت وجهها حين استدار الشراع، فظهرت له كاملة مرة أخرى.

بقيت واقفة عند طرف المرسى، ممسكة بالسيف الخشبي من قبضته العارية.

اختفى برج إيلارا خلف الضباب قبل أن تختفي صورته من ذهن نائل. بقي عند مؤخرة السفينة يراقب الموضع الذي كان فيه، فيما راحت إيسا تقرأ التيار، ويثبت رائف الحبل حول خصره. لم يجد أحد منهم ما يقوله بعد الوداع. كان الشريط الذي أعادته أليثا إلى معصم نائل لا يزال رَطبا من هواء البحر، والورقة التي كتبت عليها حاجات أهل المدينة محفوظة في حقيبته.

عاد الضوء إلى طبيعته دفعة واحدة. اهتزت البوصلة، ثم استقرت على طريق الساحل. لم يروا الميناء حتى صاروا على مسافة قصيرة منه؛ بدا مزدًحما أكثر مما تركوه، وارتفعت فوق المخازن رايات لم تكن هناك حين أبحروا. أدارت إيسا السفينة إلى المجرى الجانبي الذي تعرفه، بعًيدا عن عيون الرصيف الرئيسي.

حين ربطوا السفينة، كانت جارة إيسا تمر بسلة خبز. توقفت عند رؤيتها، ونظرت إليها نظرة من كان يستعد لسماع خبر سيئ.

«أين كِنت كل هذه الأيام؟ ظننتك غرقت هذه المرة. ولم يعرف أحد أين ذهِبت.»

تبادلت إيسا ونائل النظرة. قالت إيسا: «خرُجت من هنا قبل يومين.»

وضعت المرأة السلة على الأرض. «خمسة أيام، يا إيسا. سألت عِنك كل صباح.»

كان نائل قد قضى يًوما واًحدا في إيلارا، أو هكذا أحس. نظر إلى الشريط، ثم إلى الماء الساكن في المجرى. تحرك العالم في غيابهم، ولم يكونوا يعرفون إلى أي مدى. حمل الورقة، ومضى وراء إيسا نحو بيتها، بينما بقي أوران ورائف لحظة عند السفينة يشدان غطاءها الأسود.

كان باب بيتها موارًبا. وجدته عند النافذة، حيث تركته، وإلى جانبه الخبز الذي وضعته له قبل رحيلها وقد ّجف طرفه. رفع أبوها وجهه عندما سمع خطاها. ّمرت على ملامحه حيرة قصيرة، ثم قال: «عِدت.»

جلست إيسا أمامه، وأخذت الكوب من حافة الطاولة إلى وسطها قبل أن تمسك يده. «عدت.» لم تطلب منه أن يتذكر غيابها، ولم تسأله ماذا فعل في الأيام الخمسة. ملأت الكوب، وانتظرت حتى شرب. كان إصبعه الآخر يرسم على الخشب دائرة لا يلتقي طرفاها، ثم يتوقف عند الشق الصغير نفسه.

أطرق نائل. رأى الشق في باب السفينة وفي الختم، ورآه الآن تحت يد رجل عاد

من البحر بعمر لم يعشه. لم يخرج إليه جواب، لكنه صار يعرف أن الرجل وصل إلى شيء حقيقي وراء الحافة.

عند الظهر جاءت سافيرا. لم تبدأ بالسؤال عن الجرس الذي سمعه الميناء، ولا عن السفينة التي عاد إليها النظر من جديد. قرأت أسماء المرضى والأدوية في ورقة أليثا، وسألت نائل أين يقيم هؤلاء الناس وكيف يمكن حمل ما يحتاجونه إليهم. قال ما رآه بنفسه، لا ما رواه أوران: بيوت مأهولة، وحديقةٌ تزرع، ومدينة لا يستطيع أهلها مغادرتها.

رفعت سافيرا عينيها عن الورقة. «أناس أحياء؟»

«ينتظرون ما في هذه القائمة أولا.» وضع نائل إصبعه على أسماء المعالج وما طلبه. «أستطيع العودة إذا وجدت الطريق. أريد أن آخذ إليهم الدواء قبل أي شيء آخر.»

لم تعده سافيرا بالطريق. قالت إنها تستطيع جمع قسم من الأدوية من مخازن ميرازا، وأن الباقي يحتاج إلى إذن تاليا. أخبرتهم أن الحاكمة تستعد لمغادرة العاصمة إلى اجتماع الممالك الثلاث في دار داخلية يصل إليها السفر ًبرا، وأن موًعدا معها لا يحتمل التأخير. أما الشيء الذي جاؤوا من أجله، أثر المياه، فليس في يد سافيرا أن تسلمه أو تعدهم بتسليمه.

سألتهم عن الجرس. أخبرتها إيسا متى سمعوا دقته الثامنة، وكيف تغير التيار عند الرأسين. أخرج رائف رسم الحجر الذي وجده تحت الماء، فوضعته سافيرا إلى جانب الورقة. لم تتعامل مع الرسم كبرهان يكفي وحده، لكنها احتفظت بنسخة منه وطلبت ألا يدخلوا بالسفينة السوداء الميناء الرئيسي.

خرجوا من الدار، وحصيلتهم الأولى وعد بالبحث عن الدواء، وموعد تطلبه سافيرا من تاليا. أما أثر المياه فبقي في مكانه.

بعد أربعة أيام من رسو السفينة السوداء في ميرازا، دخل ماردين على جروان وفي يده رسالتان وصلتا بطريقين مختلفين. الأولى من عين تراقب الميناء: جرس غارق دّق ثماني دقات، وسفينة سوداء ظهرت في مجرى جانبي بعد غياب خمسة أيام. والثانية من طريق تجار الساحل: فتى يحمل خريطة شوهد بصحبة

أوران وفتاة من ميرازا.

قرأ جروان الرسالة الأولى حتى نهايتها. لم يتوقف عند وصف السفينة، بل عند الموضع الذي سمع منه الناس الدقة الأخيرة. مد يده إلى الحجر الأسود بجانب خريطة بحر السكون. تحرك السهم الذي كان يثبته فوق الحافة، حركة صغيرة لا يراها من لا يعرف أين كان بالأمس.

أخرج ماردين قصاصة قديمة من جيبه، وضعها إلى جانب الخبر الجديد. هي التي حاول أن يعرضها عليه قبل أيام، فصرفه قبل أن يكمل. لم يقل شيئًا، ولم يحتج إلى ذلك. مرّ بصر جروان من الورقة الأولى إلى الثانية، ثم رفع الحجر قليلًا ليرى الخط تحته.

«هل رأى أحد وجه الفتى؟»

«وصفوه، ولم يذكروا اسمه. من فتح الطريق لا يدخل الميناء الرئيسي، وهذا يجعل الوصول إليه أبطأ.»

«إذا حمل خريطة، فسنرى أين يقوده خطها.» أعاد جروان الحجر، ثم أشار إلى مراسل ميرازا. «تابع السفينة، لا الفتى وحده. ومن يدخل إليها ومن يخرج منها. لا أريد حركة في الميناء تشعرهم بأننا نبحث.»

سأل ماردين عن أمر رهفان. كان فاريك قد رفض إخضاع جنوده لزافرين، لكن الطريق إلى قصره لم يُغلق في وجه من يحمل كتابًا من حليف. نظر جروان إلى موضع المملكة على الخريطة، وأمر أن تصل الرسالة إلى إيردان بالطريق الذي اتفقا عليه. بقيت يده عند حدود ميرازا لحظة، ولم يرفعها إلا حين وضع الحجر الأسود إلى جانبها.

في الطريق البري بين ألدوريا ونومارا، وصل إيلان إلى الدار المختارة قبل الوفود. كانت أبعد من العاصمة والميناء، ويمكن للقوافل الثلاث أن تبلغها من جهات مختلفة. تفقد الأبواب والمخزن والمرابط، ثم طلب من حرسه أن يتركوا ساحة الدار خالية حين تصل رايات الضيوف. لم يُرد أن يبدأ الاجتماع بجيش يقف في وجه آخر.

وجد في غرفة الضيوف ثلاث رسائل تنتظر توقيعه. الأولى تؤكد طريق وفد نومارا. والثانية تسأل عن حرس تاليا بعد اضطراب ميرازا. والثالثة خبر قصير عن سجلات أحلام ُأخرجت من مخزن قديم في نومارا، فيها ذكر طريق كان ينتهي عند بحر السكون قبل أن تختفي وجهته من الخرائط. لم يعرف كاتبها لماذا عادت الإشارات تظهر الآن.

قرأ إيلان الرسالة الأخيرة مرة ثانية. إن كان ما يتناقله البحارة صحيًحا، فالاجتماع لن يقتصر على ضبط الحدود والتجارة. كتب إلى ممثل نومارا أن يحضر ما يمكن حمله من السجلات، وإلى تاليا أن الدار جاهزة في الموعد المتفق عليه. لم يذكر في رسالته الأخيرة الجرس، فقد سمع خبره من قافلتين بصيغتين مختلفتين، وأراد أن يسألها عنه وجًها لوجه.

دخل الحارس وأخبره أن الرسل غادروا. وقف إيلان عند النافذة حتى تجاوزوا التل، ثم عاد إلى الغرفة وترك المقاعد الثلاثة خالية حتى يصل أصحابها.

وفي هاروك، وصل إيردان عند تبديل حرس المساء، يحمل كتابًا مختومًا بطلب مراجعة إمداد الطريق. ترك خلفه حصن قاسران الصغير، وجاء إلى رهفان مع رجال قال إنهم يحرسون العربتين اللتين تحملان السجلات والمؤن. لم يعترض رجال الباب على ختم يعرفونه، لكن نيرفا التي مرت بساحة القصر رأت عدد الحّراس قبل أن ترى الكتاب.

طلبت أن ُيفتح سجل الحمولة. قال إيردان إن فاريك سيقرأه صباًحا، وإن العربتين ستنتظران عند المخزن الخارجي إلى ذلك الحين. كان صوته هادئًا، غير أن ثلاثة من رجاله لم يبرحوا موضعهم قرب المدخل الداخلي. أعادت نيرفا نظرها من الرجال إلى الباب وسألت من الذي أجاز لهم دخول الساحة.

«منحنا القصر بابًا كلما جئنا بطلب تعزيزات»، أجاب إيردان. «والطريق لا يحتمل تأخيًرا آخر. كل توقف يفتح لقرهان بابًا لاستعادة ما خسرته قاسران.»

لم ترد نيرفا على الاسم. كان ما عرفته عن استعادة قرهان للمعبر كافًيا لتفهم سبب استعجال فاريك، لكنه لا يفسر حرًسا لا يتركون عربتي مؤن وحدهما. عبرت البهو إلى أخيها. وجدته متعًبا، والكتب مفتوحة أمامه. أطلعته على عدد الرجال،

فمد يده إلى كتاب الإمداد دون أن يفتحه.

«الصباح»، قال فاريك. «أفحص الأختام حين يحضر الكاتب.»

أرادت أن تقول إن رجال إيردان يملكون الليل كله. رأت التعب في وجهه، فطلبت منه إدّنا بمراقبة الممر بنفسها. أومأ، وهو يعود إلى الرسالة التي أمامه. لم يكن في الأمر المكتوب ما يجيز نقل العربتين إلى داخل القصر؛ وهذا ما جعل نيرفا تصعد إلى الرواق المطل على المخزن بدل أن تعود إلى غرفتها.

عند منتصف الليل انطفأ مصباح الساحة ثم اشتعل. كان رجال إيردان قد ابتعدوا عن الباب كما طلبت.

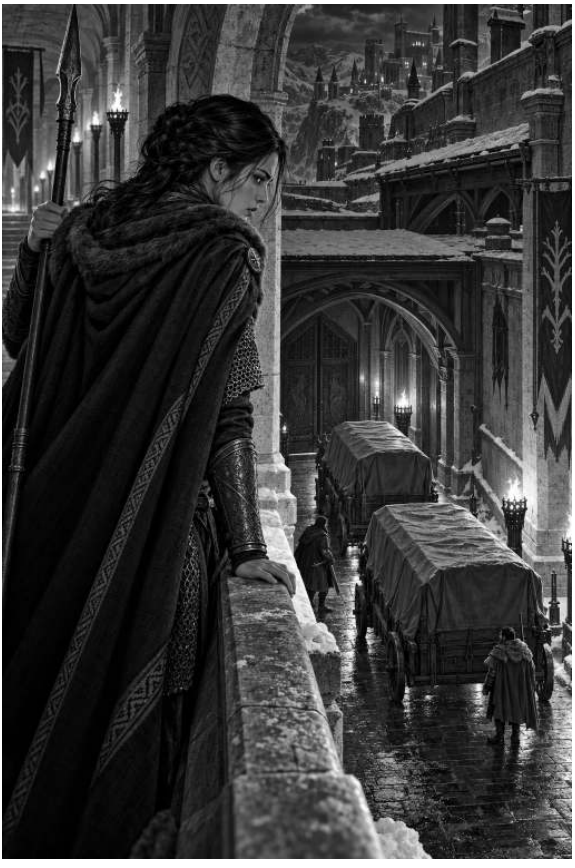

لكن العربتين اللتين دخلتا معه لم تعودا عند المخزن الخارجي؛ رأتهما تحت سقف الممر المؤدي إلى داخل القصر.

أعاد الطبيب لف الضماد حول جنب سايرن، ثم طلب منه أن يجرّب الوقوف دون أن يستند إلى حافة السرير.

وقف. امتد الألم من موضع الطعنة إلى ظهره، لكنه لم ينحنِ هذه المرة. بلغ النافذة بخطوات بطيئة، ورأى في ساحة قصر تيرافا فرسانًا يبدّلون خيولهم قبل الخروج إلى الطريق. قبل أسابيع، كان الوصول إلى النافذة يحتاج إلى مساعدة. الآن صار يستطيع أن يتبعهم ببصره حتى البوابة، وأن يضيق صدره لأنه لا يستطيع اللحاق بهم.

«المشي داخل الجناح»، قال الطبيب وهو يجمع أدواته. «هذا ما سمحتُ به.»

«بلغت النافذة.»

«ورأيتُك تفكر في السلالم.»

لم ينكر سايرن. خرج الطبيب، تاركًا الباب موارَبًا كما اعتاد منذ نقله أردان إلى الجناح القديم. لم يكن سايرن سجينًا، لكن قلة من أهل القصر عرفوا من يقيم فيه. كان ذلك جزءًا من حمايته، وجزءًا مما جعله يشعر بأن الحرب تمضي من دونه.

دخل دارن قبل أن يبرد الماء الذي تركه الطبيب. وضع على المنضدة ورقتين طواهما رجال الطريق طيّات صغيرة لتنجوا من التفتيش.

«الأولى من قاسران. قرهان أمن المعبر، وما زالت ميرافا تمسك دمهار. الثانية جاءت من رهفان هذا الصباح.»

قرأ سايرن الورقة الأولى واقفًا. أعاد قراءة اسم قرهان. كان أخوه قد استعاد المعبر الذي عجز عنه غيره، وأعاد رجال قاسران إلى مواقعهم. يستحق ذلك الاعتراف، مهما خشي سايرن ما قد يفعله قرهان بعد النجاح. تذكر قول ميرافا إنها كانت تحتاج إليه ليوقف أخاهما إذا اندفع أبعد مما تسمح به قوة المملكة. ولم يكن الآن إلى جوار أيٍّ منهما.

انتقل إلى الورقة الثانية. كان في أعلاها اسم مدينة هاروك، وتحته أسماء من دخلوا القصر بحجة مراجعة الإمداد.

إيردان آل فالدار.

لم يُكمل السطر. وضع الورقة على المنضدة، وسحب يده عنها كما لو أن حافتها جرحت إصبعه.

عاد إليه ممر المناجم بعد الكمين: صوت رجال خلفه، وكتف إيردان قريبًا منه أكثر مما ينبغي، ثم ضربة جاءت من الموضع الذي لم يكن يحرسه. ظل يتذكر وجه نائبه بعد الطعنة بوضوح أشد من تذكره للألم. لم يكن فيه تردد.

قرأ دارن صمته ولم يقترب. قال بعد برهة: «دخل ومعه عربتان ورجال حراسة. فاريك لم يرّده عند الباب.»

أخذ سايرن الورقة من جديد. قرأ عدد الرجال ووقت وصولهم واسم الباب الذي عبروا منه. بحث عن سبب عسكري يحتاج إلى عربتين داخل قصر رهفان فلم يجد. كانت حجة الإمداد مألوفة؛ فتحت لإيردان أبوابًا كثيرة من قبل.

قال: «من أرسل الخبر؟»

«رجل يعرف طرق القوافل. لم يدخل القصر. رأى العربتين ومن كان يمشي إلى جانبهما.»

طوى سايرن الورقة بدقة. «يحتاج فاريك إلى التحذير.»

رفع دارن رأسه. «فاريك الذي دخلت جيوشه أرضك، وخرج إيردان من عنده بعد أن تركك للموت؟»

«إن سقط فاريك في يد إيردان، صارت رهفان كلها لجروان. فاريك عدو يحفظ حدوده؛ إيردان سيسّلمها له مفتوحة. لا أطلب منك إنقاذ فاريك. أطلب أن تمنع هذا الطريق من أن يصير طريق جروان.»

نظر دارن إلى الورقة في يده. «لن تصل إليه رسالة من رجل يظنه الجميع ميِّتا.»

«إذن أرسلوها باسم من يستطيع الوصول إليه. ولا تذكروا اسمي.»

أخذ دارن الورقة، لكنه لم يغادر. «وميرافا؟»

نظر سايرن إلى الخبر الأول. قرهان استعاد المعبر، وأخته تقود مملكة لم تتوقف عن البحث عنه ثم اضطرت إلى المضي من غيره. لو وصلت إليها كلمة بخطه، فقد تنقذ رجالًا. ولو وقعت في يد إيردان، فقد تسوقه مباشرة إلى تيرافا.

سحب ورقة بيضاء من درج المنضدة ورسم عليها خطوط المعبر كما كان قبل سقوطه. وضع علامة صغيرة عند الممر الغربي؛ ليست موضع جيش ولا إشارة معروفة في خرائط القصر. كان يرسمها لميرافا منذ صغرهما كلما وجدا طريقًا خفيًا بين أسوار التدريب. تعرف شكلها إذا رسمها هو.

كتب تحت الرسم: «ثبّتي رجال قرهان عند المعبر، ولا تتركيه يتقدم أبعد. راقبي طريق هاروك، ولا تثقي بختم إيردان. سيأتيك التفسير من الطريق الذي تعرفينه.»

قرأ ما كتب، ثم أضاف علامة ثانية إلى جانب الأولى. بذلك ستعرف ميرافا أنه لم يكتِف بإرسال خبر سمعه من غيره.

ناول الورقة لدارن. «إلى يدها. لا إلى مجلسها، ولا إلى أحد من كتابها.»

«أردان يستطيع أن يختار حامِلًا لا يُوقف عند حدود قاسران.»

خرج دارن بالرسالة. بقي سايرن عند المنضدة، ينظر إلى الموضع الفارغ الذي تركته. خطا نحو الباب قبل أن يسمع وقع قدمين في الرواق. كانت سيراي قد وصلت.

رأت الضماد ظاهرًا تحت ثوبه، ثم نظرت إلى الورقة المطوية في يد دارن وهو يبتعد. دخلت وأغلقت الباب بما يكفي كي لا يصل صوتهما إلى الرواق.

«أخبرني دارن أن أخبارًا جاءت من رهفان.»

قال سايرن: «إيردان في قصر فاريك. أرسلت تحذيرًا، وكتبت إلى ميرافا.»

لم تخفِ دهشتها عند الاسم الأخير. تقدمت إلى المنضدة حيث بقي رسم قديم للمعبر، وتفحصته دون أن تلمسه.

«كنتَ تريد أن تسمع أختك منك قبل أن يعلم الناس أنك حي.»

«ما زلت أريد ذلك. الرسالة تخبرها بما يكفي لتتصرف، ولا تخبرها أين أقيم.»

سكتت سيراي لحظة، ثم قالت: «وحين تخرج من هذا القصر؟»

تذكر سايرن وعده لها. لم يكن يريد أن تعرف من فرسان الفناء، أو من سرير يجده الطبيب خاليًا عند الصباح. قال: «سآتي إليك قبل أن أرحل. لم أحدد يومًا، ولن أحدده من وراء ظهرك.»

نظرت إلى خطواته بين المنضدة والنافذة، وإلى يده التي استقرت على حافة الخشب حين اشتد الألم. لم تطلب منه أن يبقى.

«انتظر حتى نعرف إن وصلت الرسالة»، قالت. «ثم نقرر معًا.»

وقفا عند النافذة. كان الفارس الذي اختاره دارن قد امتطى جواده في الساحة، والرسالة مخفية تحت ردائه. فتح الحارس البوابة، وعبرها الرجل نحو الطريق المؤدي إلى قاسران. تابعه سايرن حتى غاب، ثم عاد ببصره إلى الخريطة. كان قرهان قد فتح طريقًا إلى المعبر، أما إيردان فقد سبقه إلى قلب رهفان.

كانت حقائب سفر تاليا مصّطفة قرب باب القاعة حين دخل نائل ورفاقه. لم يجلس أحد بعد؛ خريطة الطريق البري إلى دار الاجتماع ّغطت نصف المائدة، وإلى جانبها قائمة بأسماء الحرس الذين سيرافقون الحاكمة خارج ميرازا. أخذت تاليا من سافيرا الورقة التي حملها نائل من إيلارا، وقرأتها قبل أن تنظر إلى أصحابه.

توقفت عند أسماء الأدوية. قلبت الورقة لتتأكد من عدم وجود شيء على ظهرها، ثم أعادتها إلى وجهها الأول.

«سافيرا تقول إن أصحاب هذه الأسماء لا يستطيعون المجيء إلينا.»

قال نائل: «رأيتهم. بعضهم يعرف أوران منذ كان شابًا. لم يغادروا مدينتهم منذ المحو.»

لمُ تِبد تاليا دهشة يسهل عليه أن يبني عليها طلبه. كانت تنظر إلى أوران الآن، وإلى الشعر الأبيض الذي لم يكن في السجلات القديمة الموضوعة أمامها. وضع أوران يده على حافة المائدة ولم يتكلم بَدلا من نائل.

قالت: «إذا كان الطريق قدُ فتح مرة، فمن يضمن أن يبقى مفتوًحا حين تعودون؟»

تقدمت إيسا إلى الخريطة. أشارت إلى الرأسين اللذين غاصت بينهما، ثم إلى موضع أبعد في البحر لم ترسمه خرائط ميرازا. «لا أضمنه. التيار تبدل في غيابنا، وسأحتاج إلى قراءته من جديد. لكنهم في حاجة إلى الدواء سواء وجدنا الطريق ًغدا أو بعد أسبوع.»

أعادت تاليا الورقة إلى سافيرا. «اجمعي ما في مخازننا. اكتبي ما ينقص، وأرسلي الطلب قبل رحيلي.» ثم التفتت إلى نائل. «هذا أستطيع أن أفعله اليوم.»

كان رائف قد وضع رسم الحجر المنتشل إلى جانب خريطة الطريق. لاحظت تاليا العلامة الناقصة فيه، ومدت إصبعها نحوها دون أن تلمس الورق.

«وهذا هو سبب طلبكم الثاني.»

«نحتاج أثر المياه»، قال نائل. «رأيت أثيرا، ورأيت من ينتظر فيها. لا تكفي خريطتي لإخراجهم.»

لم تنكر تاليا ما قاله عن المدينة. أبعدت رسم الحجر عن قائمة الحرس حتى لا تغطيه يد أحد، وجلست أخيرًا.

«كل حاكم لميرازا تسّلم معرفة بوجود مملكة ثامنة، ومعها واجب حفظ أثر المياه. أعرف لماذا تطلبه. ولا أستطيع أن أسّلم قوة مملكتي لأنك وصلت إلى أرض ُمحيت ورأيت أهلها.»

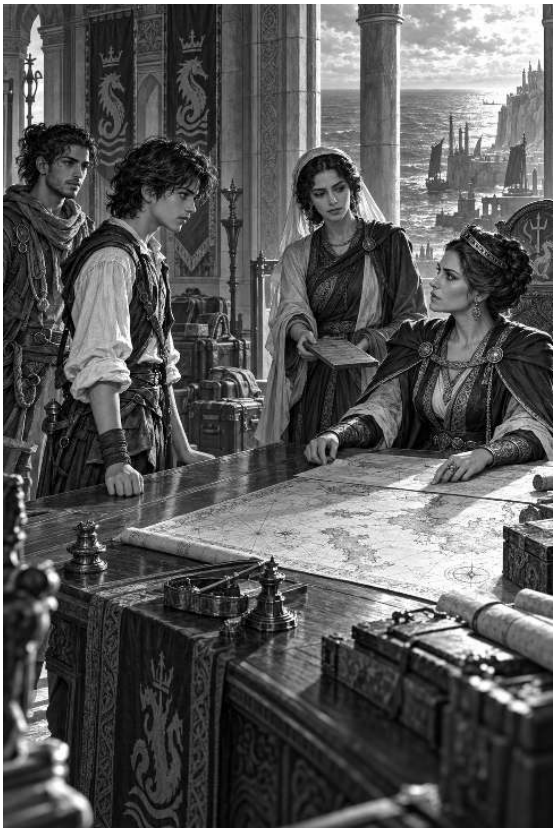

قال نائل: «لن أطلب منك تصديق أوران وحده. إيسا كانت معنا. ورائف رأى الطريق يتصل تحت الماء.»

«أصدّق أنهم رأوا شيئًا لا تكذبه خرائطنا»، أجابت. «ولهذا أمرت سافيرا بتجهيز الدواء، وأسمح لكم بفحص السجلات التي قد تعينكم على العودة. أما الأثر، فخروجه من موضعه قرار تتحمل ميرازا عاقبته. لن أتخذه قبل أن أعرف من سيحمله، وماذا سيحدث إذا أخطأ.»

التفتت إيسا إليها. كان سؤال الحامل موجّها نحوها بقدر ما هو موجه إلى نائل، لكن تاليا لم تطلب منها جوابًا في القاعة. قالت إن سافيرا ستريهم موضع حفظ الأثر بعد أن تنهي عملها في المخازن، وإنها تريد تقريرها قبل أن تغادر إلى الاجتماع. نهضت وأخذت خريطة الطريق البري من تحت الورقة.

خرج نائل وفي يده قائمة الأدوية التي أعادتها سافيرا إليه وقد وضعت علامة أمام ما وجدته في ميرازا. لم يحصل على الأثر، لكنه صار يحمل شيئًا يستطيع إيصاله إلى أليثا. تبع إيسا عبر الممر المؤدي إلى مخازن المياه، حيث ستقرر بعينيها إن كان السؤال الذي تركته تاليا أمامهم يحتاج إلى جواب منها.

كانت سافيرا قد انتهت من جمع الأدوية المتوافرة حين خرجت إليهم من المخزن. وضعت أمام نائل صندوقًا صغيرًا، وإلى جانبه ورقة كتبت فيها ما لم تجده بعد. تفقد الأسماء واحدًا واحدًا، ثم أغلق الصندوق ووضعه قرب حقيبته.

قالت سافيرا: «طلبت تاليا أن تروا موضع الأثر. أبقوا أيديكم بعيدًا عنه حتى أقول غير ذلك.»

سارت بهم في ممر ينحدر تحت الجناح البحري للقصر. كلما نزلوا درجة، ازداد صوت الماء وضوحًا. لم يكن هديرًا يأتي من البحر خلف الجدران؛ سمعته إيسا يتحرك تحت أقدامهم، يدخل من قناة ضيقة ويخرج من أخرى. توقفت مرة لتصغي، ثم تابعت السير دون تعليق.

انتهى الممر عند باب حديدي وقف أمامه حارسان. أبرزت سافيرا مفتاحها، وانتظرت حتى رفع أحدهما المزلاج. انحنى رائف ليرى أسفل القفل. كان في الخشب المحيط به خدش قصير، وفي حافته لون أفتح من بقية الباب.

«رُفع هذا اللوح من قبل»، قال.

نظرت سافيرا إلى الموضع الذي يشير إليه. «بعد عاصفة الربيع. دخل الماء إلى الممر، ففككنا اللوح لنصلح القفل.» مدت المفتاح نحو الحارس. «الإصلاح مسجل. افحصوا الباب ثانية بعد خروجنا.»

مرر رائف إصبعه قرب الخدش من غير أن يلمسه. قد يكون كلامها صحيحًا؛ لم ير علامة تكفي ليثبت أن أحدًا فتحه بعد الإصلاح. دخل مع الآخرين، وظل الباب في مجال بصره حتى أُغلق.

كانت الغرفة مستديرة، تتوسطها بركة محاطة بحافة حجرية منخفضة. الماء فيها صافٍ إلى حد أظهر بلاط القاع، لكنه لم يكن ساكنًا. تدور فوقه خطوط دقيقة لا تبلغ الحافة، ثم تعود إلى المركز. هناك استقر قرص ملكي قديم داخل تجويف من الحجر، ورسمت على سطحه خطوط تشبه مجاري الماء على خرائط ميرازا.

اقتربت إيسا خطوة. لاحظ نائل أنها لا تنظر إلى القرص، بل إلى البركة.

«هناك تيار يصعد من القاع»، قالت. «لكنه يعود قبل أن يصل إلى السطح.»

أشارت سافيرا إلى قناة عند الجدار. «الباب الخارجي مغلق. البركة لا تتصل بالبحر الآن.»

هزت إيسا رأسها. غمست طرف إصبعها في الماء عند الحافة، ثم سحبته. «أعرف حركة المد حين تدخل قناة. هذه الحركة تأتي من الداخل.»

ظل أوران عند الباب، وإلى جانبه رائف. لم يقترب أي منهما من البركة. سأل نائل سافيرا: «هل تاليا طلبت أن ترى إيسا الأثر فقط؟»

«طلبت أن أعرف إن كان يستطيع الاستجابة لها.» نظرت سافيرا إلى إيسا. «المس القرص بيد واحدة. إذا تغير الماء، ارفعي يدك فورًا.»

نزعت إيسا الحزام الجلدي عن معصمها ووضعته على الحافة. كانت قد نزلت وحدها إلى أعماق لا يجرؤ عليها غواصو الميناء، لكن يدها تباطأت قبل أن تبلغ القرص. لم تكن تعرف ما الذي ينتظرها فيه. مدت أصابعها أخيرًا ولمست الخط المحفور عند طرفه.

اتجهت الخطوط التي تدور في البركة نحو يدها. التقت عند القرص، ثم سكن الماء كله لحظة. رفعت إيسا عينيها إلى سافيرا. قبل أن تتكلم، صعد عمود ضيق من الماء والتف حول معصمها.

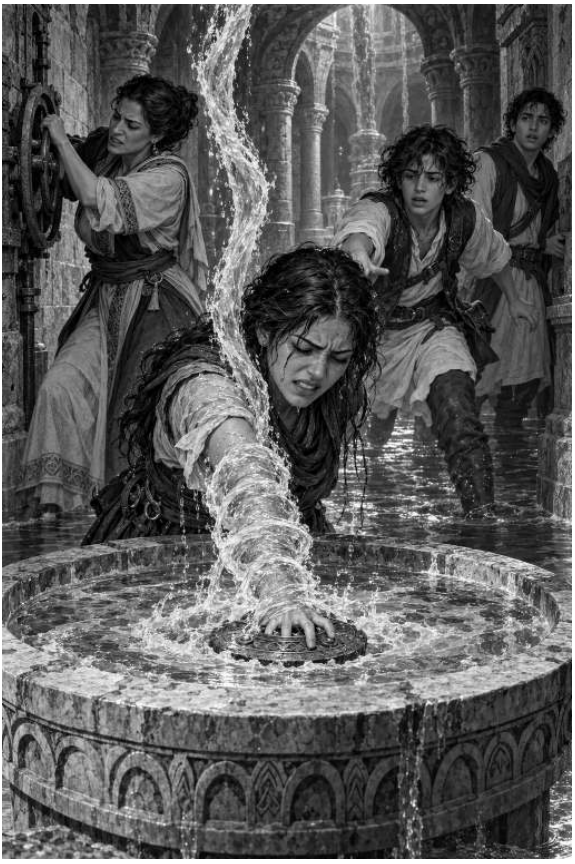

سحبت يدها. لم تتحرك.

اندفع الماء إلى أعلى حتى بلغ حافة البركة. تراجع نائل، ثم رأى أصابع إيسا تنقبض حول القرص؛ كانت تحاول إفلاته ولا تستطيع. ضغط الماء ذراعها إلى الحجر، وظهر الألم في وجهها.

«افتحي أصابعك!» قالت سافيرا.

«أحاول.»

تقدمت سافيرا إلى الجدار وأمسكت بذراع عجلة حديدية. شدتها، فلم تتحرك. كان ضغط الماء قد أحكم بوابة التصريف من جهتها الأخرى. اندفع نائل إليها، فوضعا ثقلهما مًعا على الذراع. لم يستجيبا إلا حين وضع أوران يده معهما. دارت العجلة دورة واحدة، وانفتح في قاع البركة مجرى ضيق.

هبط الماء عن الحافة، لكنه ظل ممسًكا بإيسا. أخذ رائف الحزام الذي تركته، ولفه حول أعلى ذراعها ليسندها إذا سقطت إلى البركة. قالت إيسا من بين أسنانها: «لا تسحبني. سيأخذ يدي معه.»

ترك الحزام مشدودًا دون أن يجرها. نظرت إيسا إلى الماء الملتف حول معصمها، ثم إلى المجرى الذي فتحته سافيرا. كفت عن مقاومة الشد كله دفعة واحدة. حّركت أصابعها حركة صغيرة، مع اتجاه الخط الذي لمسته أول مرة. تبعها جزء من الماء نحو القاع. تنفست، وأعادت الحركة أقصر من سابقتها.

تراجع الماء عن معصمها. أفلتت القرص وأسندها رائف حين اختل توازنها. في البركة، عادت الخطوط تدور حول المركز، أبطأ مما كانت عليه عند دخولهم.

جلست إيسا على الحافة وفتحت يدها. احمر جلد راحة الكف، وامتدت حول معصمها علامة داكنة حيث ضغطه الماء. حاولت ثني أصابعها فتوقفت قبل أن تبلغ راحتها.

جاءت سافيرا بقطعة قماش ولفت بها اليد المصابة. كانت حركتها ثابتة، لكنها نظرت إلى مستوى الماء أكثر من مرة. قالت: «لم أره يرتفع إلى الحافة قط.»

«ظننته يتبعني»، قالت إيسا. «وحين حاولت إيقافه، شدني إليه.»

جلس نائل قربها. كان الصندوق الذي سيحمله إلى أثيرا ينتظره في الأعلى، والأثر أمامه على بعد خطوات. بعد ما رآه، لم يعد يستطيع أن يخلط بين الوصول إلى القوة والقدرة على حملها.

نهضت سافيرا، ونادت الحارسين ليفحصا عجلة التصريف والباب. أخرجت دفترها، وكتبت ما جرى من لمس إيسا للقرص إلى اللحظة التي هدأ فيها الماء. لم تكتب أن الأثر اختار حاملته، ولم تكتب أنه رفضها.

عند خروجهم، توقف رائف مرة أخرى أمام اللوح المحيط بالقفل. فحصه الحارس في حضوره، وقارن موضعه بسجل الإصلاح. وافقت العلامات ما قالته سافيرا، ولم يجد رائف ما يعترض به. ومع ذلك، حفظ شكل الخدش في ذهنه قبل أن يُغلق الباب.

في أعلى الدرج، طلبت إيسا من نائل أن يريها ورقة الأدوية. أمسكتها بيدها السليمة وقرأت الأسماء، ثم أعادتها إليه. كانت يدها الأخرى ملفوفة بالقماش، ولم تستطع أن ترفعها إلا قليلًا.

قالت سافيرا: «سأخبر تاليا بما حدث. وستبقى البركة مغلقة حتى يصدر قرارها.»

نظرت إيسا إلى الباب في أسفل الممر. لم تطلب فتحه ثانية. كانت قد عرفت كيف يستجيب الأثر للمستها، وعرفت أيضًا كم يمكن أن يؤذيها قبل أن تفهم كيف توقفه.

لم تكن يد إيسا قد استقرت داخل الضماد حين وصل إلى مخزن الأدوية رجل يرتدي زي عمال القصر. حمل أمرًا مختومًا، ووقف عند الباب حتى فرغت سافيرا من عدّ القوارير.

قال: «فحص بوابة التصريف في الجناح البحري. أُرسلنا قبل أن تغادر تاليا.»

نظرت سافيرا إلى الورقة. كان ارتفاع الماء في البركة قد حمّل البوابة ضغطًا لم تُختبر به منذ سنوات، ولذلك لم تستغرب طلب فحصها. قرأت الأمر، ثم رفعت بصرها إلى الرجلين اللذين ينتظران خلف حامل الرسالة.

«افحصوا العجلة والقناة. لا تفتحوا حجرة الأثر. والحارسان يبقيان عند الباب طوال عملكم.»

أومأ العامل، وأخذ الورقة حين أعادتها إليه. مضى الرجال إلى الدرج، يتبعهم أحد الحراس. كان أوران في الجناح الآخر مع تاليا؛ طلبت أن تسمع منه ما يعرفه عن أثيرا قبل سفرها إلى لقاء إيلان وإيرانا. ترك نائل عند إيسا ورائف، وأخبرهم أنه سيعود قبل تجهيز السفينة.

واصلت سافيرا عملها. قارنت أسماء الأدوية بما وضعته في الصندوق، بينما حاولت إيسا شدّ حزام حقيبتها بيد واحدة. لم تستطع إحكام العقدة. أخذ نائل

طرف الحزام وربطه لها من غير تعليق.

كان رائف عند الباب الذي خرج منه الرجال. رأى أثرًا باهتًا على حافة الورقة قبل أن تطويها يد العامل، فلم يرفع عينيه عنها إلا بعد أن اختفى صاحبها عند أول الدرجات.

«سافيرا، من كتب أمر الفحص؟»

«كاتب الجناح. رأيت ختمه.»

«أريد أن أراه مرة ثانية.»

وضعت القارورة التي بيدها في الصندوق. «لماذا؟»

«كان تحت الختم أثر كتابة مُحيت.»

لم يكن متأكدًا مما كُتب. رأى حافة حبر عند موضع كان ينبغي أن يكون نظيفًا، وخطًا خفيفًا يمتد تحت الشمع. قالت سافيرا إن أوامر الإصلاح تُكتب أحيانًا على ظهر أوراق استُعملت من قبل، لكنها التقطت مفتاح المخزن وخرجت معه. لم تتجاهل ملاحظته؛ ولم يكن لديه بعد ما يثبت أن العمال خطر.

عند أعلى الدرج، أعاد رائف فتح دفتر الإصلاح الذي تركه الحارس. كانت فيه أسماء من فككوا لوح القفل بعد العاصفة، وتاريخ إعادة تركيبه. مرّ بإصبعه على السطر الأخير، ثم توقف.

«هذا اسم الرجل الذي دخل قبل قليل.»

نظرت سافيرا. «كان ضمن فريق الإصلاح.»

«اسمه هنا بيد الكاتب، لكنه أُضيف بعد أن جفّ حبر بقية السطر.»

اقتربت إيسا، وأخذت الدفتر بيدها السليمة. لم تر فرق الحبر، لكنها سمعت صوت الماء من أسفل الدرج. كان ضعيفًا، متقطعًا، ثم صار يجري بلا انقطاع.

«فتحوا شيئًا غير بوابة التصريف»، قالت.

نزلت سافيرا مسرعة. تبعها الحارس ورائف، ولحق بهما نائل وإيسا. عند الباب الحديدي كان الحارس الثاني واقفًا في موضعه، غير أنه لم يَرَ العمال منذ دخلوا الممر المؤدي إلى العجلة. أشار إلى الباب الصغير في آخره.

«دخلوا من هناك. سمعت العجلة تدور مرة.»

قالت سافيرا: «لم آذن لهم بفتح قناة الماء.»

أدخلت مفتاحها في باب الممر. دار نصف دورة وتوقف. دفعت الباب بكتفها، فلم يتحرك. ترك رائف الدفتر لنائل، وانحنى عند القفل. كان الخدش الذي حفظه في ذهنه يمتد الآن إلى أسفل اللوح؛ رفع أحدهم الخشب قليلًا ووضع شيئًا خلف المزلاج.

«الباب مغلق من الداخل»، قال.

من خلفه جاء صوت حجر يحتك بحجر. رفعت إيسا رأسها، لا نحو الباب، بل نحو الجدار الذي يمر تحته الماء. وضعت كفها السليمة على الحجر، ثم سحبتها إلى موضع أبعد.

«إنهم عند البركة.»

«الممر لا يصل إليها»، قالت سافيرا.

«الممر الذي تعرفينه لا يصل.»

تذكرت حركة الماء التي صعدت من القاع في زيارتهم الأولى. كان باب القناة المعروفة مغلقًا، ومع ذلك دخل تيار ضعيف إلى البركة. أشارت إلى شق في البناء القديم خلف عجلة التصريف.

«هناك مجرى آخر وراء هذا الجدار. الماء كان يخرج منه قبل أن نلمس الأثر.»

تبدل وجه سافيرا. قرعت جرس النجدة المثبت عند الباب، ثم أخذت مفتاح حجرة الأثر ومضت إليها من الطريق الرئيسي. عند مرورهم بشباك ممر الصيانة رأوا الحارس الذي تبع العمال مقيَّدا قرب العجلة، فاقد الوعي، وقد انتُزع مفتاح ذلك الممر من حزامه. واصل نائل وإيسا ورائف وراء سافيرا والحارس الآخر إلى الحجرة.

كان سطح البركة منخفضًا أكثر مما رأوه قبل ساعة. انحدر الماء نحو المركز، كاشفًا حافة فتحة لم تظهر لهم من قبل بين بلاط القاع. لم يكن القرص الملكي في مكانه.

خطا الحارس إلى الأمام، لكن سافيرا أمسكت بذراعه. خرجت من الفتحة يد مغطاة بقفاز مبلل، ثم ارتفع رجل حتى بلغ كتفاه سطح الماء. كان يحمل القرص إلى صدره بيد، ويتشبث بالحجر بالأخرى. وفي اللحظة نفسها، سقط مزلاج باب الحجرة خلف المجموعة بصوت حاد.

استدارت سافيرا. عند المدخل وقف أحد الرجال الذين دخلوا بأمر الفحص؛ أسقط المزلاج من داخل الحجرة، ومفتاح ممر الصيانة المسروق معلّق في حزامه. بينه وبين البركة صار نائل وإيسا ورائف، وإلى جانبهم سافيرا والحارس الذي لم يسحب سيفه بعد. حاولت إيسا تحريك يدها المصابة، فاشتد الألم عند معصمها. أبقتها قريبة من صدرها ونظرت إلى الماء المنسحب حول قدم الرجل الغارق.

لقد وجدت الطريق الذي دخلوا منه. بقي عليها أن تمنعهم من الخروج به.

ضرب نائل طرف عصاه المعدنية بين قدَمي الرجل الواقف عند الباب. اختل توازنه، لكنه أمسك بسلسلة تتدلى من الجدار وشدّها قبل أن يبلغ نائل موضعه.

تحركت بوابة حجرية فوق البركة. لم تسقط كلها؛ توقفت عند منتصف مسارها، فاندفع الماء من القناة المفتوحة تحتها بقوة دفعت الحارس إلى الحائط. أمسكت سافيرا بذراعه، لكن سلسلة ثانية التفت حول قدميهما مع ارتفاع الماء. حاول الحارس بلوغ سيفه، ووجد نفسه يثبت سافيرا كي لا تجرفها الدفعة التالية.

في وسط البركة، كان الرجل المبلل يتجه بالقرص الملكي نحو الفتحة التي خرج منها. لم يكن يحمل سلاحًا، ولم يحتج إليه؛ الماء المنسحب إلى المجرى يحمله أسرع مما يستطيع أحد الجري حول الحافة.

«سيسقط مستوى الماء لحظة، ثم يعود من تحت البوابة»، قالت إيسا. كانت تنظر إلى الدوامة، ويدها المصابة مثبتة إلى صدرها. «إذا بلغ الفتحة فلن تلحقوا به.»

ألقى نائل العصا عبر البركة. اصطدمت بالحجر إلى جانب الرجل، وأعطت إيسا موضعًا تستند إليه وهي تنزل إلى الماء. حاول منعها، لكنها كانت قد غاصت. اختفت طويلًا بما يكفي ليظن أنها ُجرفت إلى القناة، ثم ظهر الرجل فجأة وقد التفت ساقه بحبل تحت السطح. رفع يده التي تحمل القرص ليحفظ توازنه.

قطعت إيسا الحبل الذي شده إلى ساقه. أفلت القرص من أصابعه وسقط قرب الحافة. التقطه نائل قبل أن يسحبه التيار. وعندما خرجت إيسا، سحبت عصاه العالقة بين حجرين ومدتها إليه بيدها السليمة. كانت تضم اليد المصابة إلى صدرها.

«سيهرب»، قالت، مشيرة إلى الفتحة.

أدخل نائل القرص في حقيبته حتى لا يعود إلى يد اللص. ضربت موجة جديدة حافة البركة، ورأى أن الماء سيبلغ باب الحجرة قبل وصول الحرس. عند الجدار امتد خط قديم خلف مجرى التصريف: مدخل صيانة أُغلق بالحجر بعد بنائه. وضع طرف العصا عند الخط ودفعه. اهتزت الحافة. أعاد الضغط على الجزء القصير الذي استطاع تثبيته، فانفرج الحجر عن ممر لا يكفي لمرور شخصين معًا. دخل أولى درجاته واتقاء للماء، ثم توقف. كانت الدرجات تصعد إلى ضوء النهار، والأثر في حقيبته إلى جانب ورقة الأسماء التي أعطته إياها أليثا. يستطيع أن يخرج الآن. لن يضطر إلى إقناع تاليا بتسليم أول قوة يحتاجها لاستعادة أثيرا، ولن يستطيع أحد إغلاق الطريق خلفه قبل أن يبلغ السفينة.

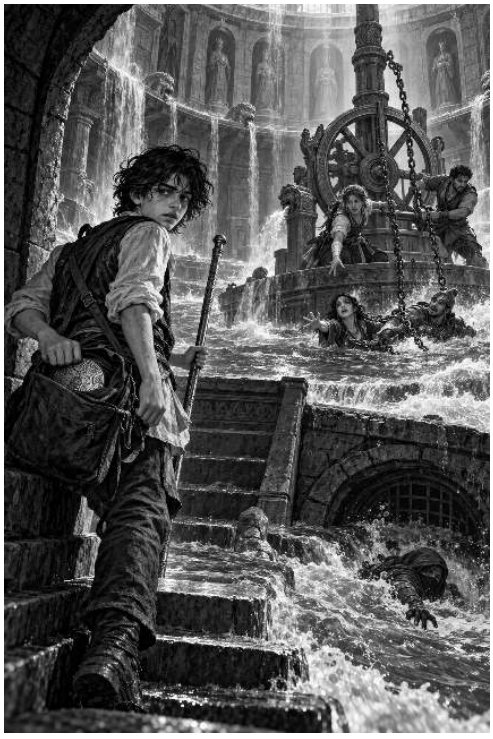

التفت. على الضفة الأخرى كانت سافيرا تحاول تحرير قدم الحارس من السلسلة. فتح اللص الواقف عند الباب قناة الماء أكثر؛ ارتفع التيار إلى خصرهما. سافيرا هي التي جمعت دواء أناس لم ترهم، والحارس بقي ليحمي الأثر الذي صار في حقيبة نائل. كان الطريق إلى القوة مفتوحًا أمامه، وثمن تركهما ظاهرًا أمام عينيه. تذكر كيف بدأت خيانة أثيرا.

نزل الدرجة التي صعدها، وأخرج القرص من حقيبته.

«رائف، البوابة توقفت عند منتصفها. أرني ما يمسكها.»

كان رائف يتفحص السلسلة التي شدها اللص. أشار إلى سن حديدي دخل في تجويف الحجر. «إن رفعتها قليلا تتحرر السلسلة، لكن الماء سيدفعها علينا حين تفلت.»

قالت إيسا: «أستطيع أن أغير اتجاه الدفعة. لحظة واحدة فقط.»

نظر نائل إلى الضماد الذي التصق بيدها. «كادت البركة تسحبك قبل قليل.»

«لهذا أعرف كم أطلب منها الآن.»

مد إليها القرص. وضعته تحت أصابع يدها السليمة على الحجر. اتجهت الخطوط الدقيقة في الماء نحوها، فقبضت على حافة البركة قبل أن تجذبها. لم تحاول إيقاف التيار كله. تبعت بعينيها خَيطا منه يدخل تحت البوابة، وّحركت إصبعين نحو قناة التصريف المفتوحة.

انحرف جزء ضيق من الماء. صاحت برائف: «الآن.»

ناول نائل عصاه لرائف، فأدخل طرفها أسفل السن الحديدي وضغطا عليها ًمعا. تحررت السلسلة من قدم الحارس، وسحب سافيرا قبل أن تهبط البوابة بقية المسافة. ارتطم الحجر بقاع مجراه، وحبس الماء المتدفق وراءه. فقدت إيسا توازنها لحظة إفلاتها القرص. أمسك نائل كتفها، وكان وجهها قد شحب من الألم.

عند الباب، حاول اللص رفع المزلاج والفرار. كان الحارس قد استعاد سيفه؛ ّسد عليه المدخل حتى وصل رجال الجناح الذين استدعاهم جرس سافيرا.

أما الرجل الذي أفلت منه القرص، فقد حمله التيار إلى شفة المجرى الخفي. تشبث بالحجر هناك لحظة ليستعيد أنفاسه. من موضعه رأى نائل عند الجدار المفتوح:

الختم يضيء تحت ثوبه. حجب عنه الماء انتقال القرص؛ وآخر ما رآه منه كان حين أخفاه الفتى في حقيبته. لم يسمع اسم الفتى، لكنه رأى ما يكفي ليصف لجروان من فتح الطريق. أفلتت أصابعه، وجرفه الماء إلى خارج القصر.

أعادت إيسا القرص إلى تجويفه. رفعت يدها عنه قبل أن تلتف بها خطوط الماء، وبقيت واقفة حتى عادت البركة إلى مستواها. جاء رائف بقطعة قماش جافة، فتحت بها سافيرا الضماد المبتل. كانت العلامة حول معصم إيسا أغمق من قبل، وأصابعها ترتجف حين حاولت فردها.

نظرت سافيرا إلى الممر الذي فتحه نائل في الجدار. كان يستطيع عبوره ومعه الأثر، وقد رأته يعود. ثم نظرت إلى الحارس الذي أخرجه من الماء، وإلى القرص المستقر في موضعه.

«تاليا ستسمع ما حدث مني»، قالت. «كله.»

أومأ نائل. استرد عصاه من رائف وحمل حقيبته، وورقة أسماء أليثا فيها. أما أول قوة يحتاجها ليخرج أهلها من أثيرا، فقد أعادها إلى ميرازا بيده.

كان أوران قد فرغ من حديثه مع تاليا حيُنفتح باب القاعة. دخلت سافيرا وثوبها لا يزال مبّتلا عند طرفه، وخلفها حارس يعرج بسبب إصابة ساقه. بقيت إيسا قرب الباب، يدها ملفوفة بضماد جديد، بينما حمل نائل حقيبته ورائف الدفتر الذي كشف فيه أثر التعديل.

نهضت تاليا قبل أن تصل سافيرا إلى المائدة.

«الأثر؟»

«عاد إلى موضعه.» وضعت سافيرا مفتاح الحجرة أمامها. «لكنهم أخرجوه من البركة، وكان يمكنهم الفرار به.»

عرضت الورقة المّزورة وسجل الإصلاح. أشارت إلى الموضع الذي رأى فيه رائف كتابةً محيت، وإلى اسمٌ أضيف بعد جفاف الحبر. ثم روت كيفُ فتح المجرى القديم من وراء الجدار، وكيف أنقذ نائل الحارس بدل أن يصعد بالممر الذي فتحه ومعه القرص.

لم تقاطعها تاليا. طلبت من الحارس أن يريها أثر السلسلة حول ساقه، ثم التفتت إلى رائف.

«رأيت العبث عند القفل في زيارتكم الأولى.»

«رأيت خَدشا»، قال. «فسرته سافيرا بإصلاح مسجل. لم أعرف حينها أن أحدا أضاف اسما إلى السجل بعد إصلاحه.»

نظرت تاليا إلى سافيرا، فأومأت. «لو كان عندي دليل، لأغلقت الممر. لم يكن عند أي منا دليل حتى وصل الأمر المزور.»

أخذت تاليا الورقة بين إصبعين. كان ختم الجناح واضحا، وهذا ما جعل دخول الرجال ممكنا. أمرت بإحضار الرجل الذي قبض عليه الحارس عند باب البركة.

دخل بين حارسين، وقد انتزع عنه زي العمال. حاول أن يعيد القصة التي قالها عند المخزن:أرسل لفحص بوابة التصريف، ولا يعرف من دخل الماء. وضعت تاليا أمامه الأمر المختوم، ثم السجل الذي ورد فيه اسمه.

«الكاتب الذي أصدر هذا الأمر يقول إنه لم يكتبه. واسمك لم يكن في سجل الإصلاح حين وقّعه.» دفعت الورقتين نحوه. «من أراد قرص ميرازا؟»

لم يجب. أخرج أحد الحراس من حزام الرجل قطعة صغيرة كان قد خبأها تحت بطانته. عرفت سافيرا علامة الطريق المحفورة فيها؛ استُعملت لتمريره بين رجال زافرين ومراسليها على الساحل. نظر الرجل إليها، ثم إلى تاليا، وعرف أن إنكار عمله في القصر لم يعد يفيده.

قال إنه تلقى الأمر بإخراج القرص وتسليمه لرجل ينتظر عند البحر. لم يعرف اسم من أصدره. كان عليه أن يفتح باب الصيانة ويؤخر الحرس حتى يخرج الغواص بالمجرى القديم. أخذته الحراسة بعد أن كرر ما يعرفه عن طريق التسليم.

انتظرت تاليا حتى أُغلق الباب، ثم نظرت إلى أوران. كان قد أخبرها قبل دخول سافيرا كيف استُعملت قوى الممالك السبع لمحو أثيرا. والآن حاول رجال زافرين أخذ إحدى تلك القوى من تحت قصرها.

قال أوران: «خروج أثر المياه من ميرازا سيعرّضه للمطاردة. وبقاؤه هنا لم يعد يخفي موضعه عمن يريده.»

«أعرف.» توجهت تاليا إلى إيسا. «لماذا أعدت القرص إلى البركة؟»

رفعت إيسا يدها السليمة قليلًا. «لأنه ليس لي. وما استطعت فعله به اليوم لا يكفي لأقول إنني أقدر على حمايته وحدي.»

«ومع ذلك أمسكتِه ثانية بعدما أصابك.»

«لم أطلب منه ما طلبته أول مرة. رأيت أين يذهب الماء، وغيّرت جزءًا صغيرًا منه. هذا أنقذ سافيرا والحارس. ثم تركته قبل أن يجرني إليه.»

تأملت تاليا الضماد. «ستحملين أثر ميرازا.»



رفعت إيسا رأسها، ولم تمد يدها إلى شيء لم يُعطَ لها بعد. تابعت تاليا: «تخرجين به لحماية الطريق إلى أثيرا، ولمنع جروان من أخذه. لا أهبك مملكتنا ولا أطلب منك ادعاء إتقان قوته. حين تعجزين عن ضبطه، تتوقفين. وحين يحتاج أهل

ميرازا إلى حمايتك، تعودين.»

قالت إيسا: «أعود.»

لم تطلب تاليا عهدًا أطول. أمرت سافيرا أن تُخرج القرص من الحوض بنفسها، وأن تضعه في غلافه القديم حتى تستطيع إيسا حمله دون أن تلمسه بيدها المصابة. انتظرت إيسا عند الباب إلى أن خرجت سافيرا لتنفيذ الأمر، ثم لحقت بها. سار رائف وراءهما، وعيناه على سجل الإصلاح الذي لم يطوه بعد.

بقي نائل مع أوران أمام الخريطة. كانت تاليا تعيد جمع أوراق الاجتماع، لكنها توقفت حين رأته يفتح حقيبته ليتأكد من ورقة أسماء أهل إيلارا.

«ما طلبه معالجهم صار في الصندوق»، قالت. «بقي دواءان سيصلان مع قارب الصباح. ستجدونهما عند سافيرا قبل الإبحار.»

قال نائل: «سأوصلها.»

أومأت، ثم أشارت إلى الطريق البري المرسوم أمامها. «سألتقي إيلان وإيرانا. سأخبرهما بما رأيته من دليل، وبأن زافرين حاولت أخذ أثرنا. لن أطلب منهما أن يّصدقا تاريخ أثيرا بكلمة مني وحدها، لكن عليهما أن يعرفا ما يفعله جروان الآن.»

أخذ أوران خريطته من طرف المائدة. قالت تاليا إنها سمعت منه ما تحتاج إليه لتبدأ الاجتماع. رافقها إلى الباب، ثم عاد إلى نائل. في أسفل القصر كانت سافيرا تخرج الأثر من موضع حفظه، وفي الأعلى كانت تاليا تستعد للطريق. للمرة الأولى منذ رأى إيلارا، صار نائل يحمل وَعدا يمكنه الوفاء به ورفيقة تحمل إحدى القوى اللازمة لإخراج أهلها.

أعيدت العربتان إلى المخزن بأمر نيرفا، لكنهما عادتا إلى الممر الداخلي في الليلة التالية. رأت رجال إيردان يحرسونهما؛ ولم يكن أمر الإمداد يجيز نقلهما إلى هناك.

هبطت الدرج. عند باب قاعة فاريك لقيت رسُولا جاء من تيرافا في آخر ساعات الليل. حمل كتابًا باسم دارن، وأصر على وضعه في يد الملك قبل أن يعود إلى الطريق. دخلت به نيرفا.

قرأ فاريك التحذير واقفا. ذكر الكتاب عربتي إيردان وعدد الرجال الذين رافقوه، وطلب إبعادهما عن الممر الداخلي والتحقق من الحرس عند البوابات. لم يذكر

سايرن. كان فاريك قد سمع من أخته قبل قليل ما يشبهه، فرفع عينيه إليها.

«صار رجال إيفارا يحصون من يدخل قصري؟»

قالت نيرفا: «رأيت العربتين تحت سقف الممر بنفسي. لا أحتاج إلى دارن كي أخبرك أنه خالف أمرك.»

وضع فاريك الكتاب إلى جانب سجل الإمداد. شحب وجهه من التعب، لكنه لم يّسلم الورقة لأحد كي ينفذ ما فيها. «عند الصباح أستدعي إيردان والكاتب. إن كان نقل العربتين دون إذن، يخرجان برجالهما من القصر.»

«الصباح يمنحه الليل كله.»

التفت إلى الباب. «ضاعفوا الحرس عند قاعتي. ولا تدعوا أُحدا ينقل شَيئا آخر.»

خرجت نيرفا قبل الرسول. كان رجال أخيها يعرفون صوتها، فنادت قائد النوبة وأرسلته لوقف العربتين. لم يصل إلى الممر. انطفأت مصابيح الساحة على التوالي، ثم جاء صليل قصير من ناحية باب المخزن. لم يكن انقطاع زيت؛ تحركت ظلال رجال بين الأعمدة في اللحظة نفسها.

ركضت نحو الرواق المطل على الممر. كانت أغطية العربتين مرمية على الأرض. تحتها صفوف من الدروع بلا شارات ورماح مفككة، حملها رجال إيردان إلى القصر كأنها أكياس مؤن. دفع بعضهم حرس الباب إلى الداخل، فيما أسرع آخرون إلى الدرج المؤدي إلى قاعة فاريك.

اعترضتهم نيرفا عند أول منعطف. اصطدم رمحها برمح رجل في المقدمة، وكسرته قبل أن يبلغ من خلفه السلم. تركت الرمح المكسور في يده، وأخذت سيفه حين سقط. خلفها وصل اثنان من حرس رهفان، فثبتوا الممر معها حتى سمعوا صوت باب قاعة الملك ُيغلق بعنف.

كان إيردان قد سلك درج الخدمة.

غيرت نيرفا طريقها، وصعدت درًجا أضيق يفتح على الرواق المقابل. رأت أخاها عند باب القاعة، وسيفه في يده، وبينهما رجال يحملون دروًعا بلا شارات. قاتل فاريك أول من بلغ إليه، لكن إيردان كان وراءه. صّد نصل الملك، واندفع أحد رجاله من الجانب الذي لم يره فاريك. وصلت نيرفا إلى الرواق حين دخل النصل

تحت درع أخيها.



سقط فاريك على ركبته. حاول أن ينهض، فرأت يده تبحث عن حافة الباب. أزاحها إيردان بقدمه ودخل القاعة.

اندفعت نيرفا نحوهم. وقف حارسان في طريقها ليتيحا لإيردان إغلاق الباب. أسقطت أحدهما، فشق نصل الآخر ساقها اليسرى ودفعها إلى الدرابزين. سمعت صوت فاريك مرة أخيرة من الداخل؛ لم تفهم كلماته. حين كسرت قفل القاعة، كان قد مات، وكان إيردان قد خرج من بابها الثاني.

التقطت سيف أخيها. لم تتبعه. كان رجال أخيها الذين بقوا في الرواق ينتظرون منها أمرا، وإيردان يملك الممرات التي تصل إلى الأبواب الخارجية. أمرت أحدهم بإخراج من يستطيع من الحرس، وآخر بحمل الخبر إلى القوات التي لم تدخل هاروك بعد. ثم سارت إلى درج لا يستعمله إلا أهل القصر.

عند أسفله كان رفال ينتظر في الظل. استدعته قبل يومين، بعد خبر عن جمع إيردان رجالا في حصنه، واستأجرته لفتح صندوق قد تحتاج إلى إفراغه. دفعت

له نصفه، ولم تخبره بما يحفظ الصندوق. رأى الدم على ّكمها، ونظر إلى الدرج خلفها.

«الآن؟»

«الآن. وخذ بقيته حين نخرج.»

قادته إلى حجرة صغيرة وراء مخزن خرائط رهفان. كان صندوق الملك مثّبتا في الحجر بقفل قديم لا يشبه أقفال أبواب القصر. ركع رفال أمامه وأخرج أدواته. ّجرب ّسنا رقيعا، ثم توقف؛ كان شيء في القفل يتحرك تحت أصابعه كلما أبعد الأداة.

«أهذا صندوق أم باب؟»

«افتحه.»

أعاد يده العارية إلى المعدن. استجاب القفل بطرقة واحدة، وانفرج الغطاء. لم تعرف نيرفا لماذا فتح بتلك السهولة، ولا عرف رفال. في الداخل حلقة ملكية من معدن داكن، بحجم راحة اليد، محفور عليها خطان متداخلان. رفعها بغلافها القماشي دون أن يعرف ما تحمل من قوة.

«كل هذا القتل من أجل شيء أحمله بّكفي؟»

أخذت نيرفا موضعها عند الباب. «احمله، ولا ّتظهره لأحد.»

جاءت خطوات على الدرج. اندفع أول رجال إيردان إلى الحجرة، فقطعت نيرفا طريقه وأعطت رفال فرصة العبور خلفها. قاتلت عند العتبة كي لا يصل أحد إلى الحلقة التي يخفيها تحت ثوبه. كان سريًعا في الممرات الضيقة، يعرف كيف ينتقل من درج إلى آخر قبل أن يراه من يطارده، لكنها بقيت وراءه كلما اقترب صوت الجنود.

خرجا من باب خدمة على طرف القصر. خلفهما ارتفعت أوامر إيردان في الساحة باسم جروان، وُأغلقت بوابات هاروك واحدة بعد أخرى. شّد رفال الغلاف إلى صدره، وسبق نيرفا نحو الأزقة. لحقته وقد بقي في يدها سيف أخيها، تعرف أن الصباح الذي أجل إليه التحذير قد جاء، وأن فاريك لن يراه.

وصل الرجل إلى زافرين وملح البحر لا يزال في شقوق يديه. لم يدخل من باب الوفود؛ قاده ماردين عبر ممر الخدمة إلى الغرفة التي أبقى فيها جروان خريطة ميرازا مفتوحة منذ خبر الجرس. وقف الناجي عند طرفها، وثيابه الجديدة تخفي الضماد الملفوف حول صدره.

لم يسأله جروان كيف نجا. وضع إصبعه على موضع القصر البحري وقال: «أخبرني بما رأيت بعد أن خرج القرص من البركة.»

قال الرجل إن فتاة قطعت عليه المجرى قبل أن يبلغ البحر، وإن فتى التقط القرص حين أفلت منه. لم يتوقف عند وصف الفتاة؛ أعاد بيده حركة الفتى وهو يضع طرف عصا معدنية في خط بين حجارة الجدار.

«كان الطريق مسدّودا. فتح فيه مَمرا إلى درجات تصعد خارج الحجرة.»

رفع جروان عينيه. «والقرص؟»

«رأيته يخفيه في حقيبته، ثم حجب الماء يديه عني.»

لم يقل الرجل إنه رأى ما حدث بعد ذلك. أمسك بحافة الحجر لحظة لئلا يجرفه الماء، ورأى الفتى واقفا عند الممر المفتوح، دون أن يرى القرص ثانية، ثم أفلتت أصابعه. بالنسبة إليه، كان وارث الطريق قد خرج من القصر بأثر ميرازا.

سأل ماردين: «ما الذي رأيته يضيء؟»

نظر الرجل إليه قبل أن يجيب. «لم تكن العصا. تحت ثوب الفتى قطعة صغيرة، ورأيت علامتها حين تحرك القماش. دائرة ينقطع خطها عند جهة واحدة، كأنها بوصلة فقدت رأسا.»

تحركت يد جروان إلى درج تحت الخريطة. أخرج ورقة قديمة لا تعرض على رسله، فتحها عند رسم صغير في زاويتها. لمْ يرها للرجل؛ اكتفى بأن يقارن ما وصفه بما يعرفه. بقي إصبعه على الرسم حتى أعاد طي الورقة.

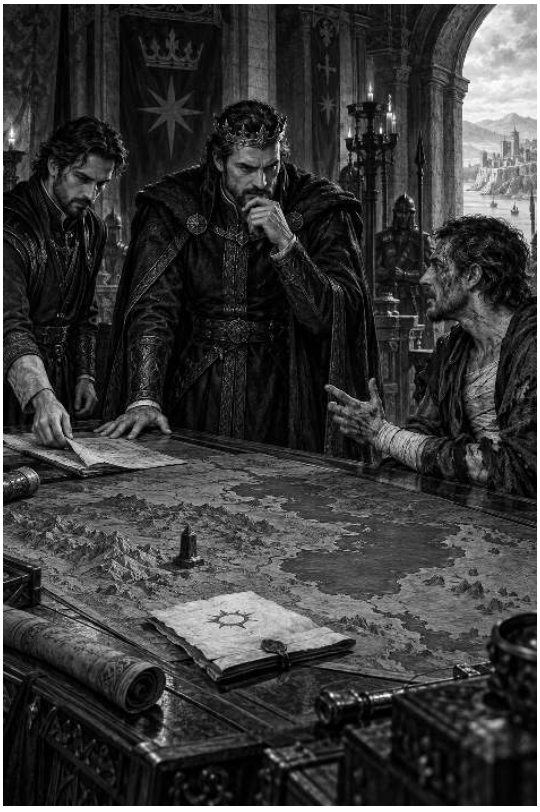

«هل سمعت اسمه؟»

«لا. صاحوا على الفتاة باسمها، لا عليه.»

أومأ جروان إلى ماردين، فأخرج الحراس الرجل ليعالجوا جراحه ويعيدوا سماع شهادته حين يستطيع الكلام. أغلق الباب، وبقي الاثنان عند الخريطة.

وضع ماردين القصاصة القديمة التي تحدثت عن حركة الحجر الأسود إلى جانب الخبر الجديد. كانت السفينة السوداء قد اختفت خمسة أيام ثم عادت، ودق الجرس ثماني مرات، والآن ظهر فتى يفتح حجرًا محذوفًا بعلامة لم يكن ينبغي أن تبقى في يد أحد.

قال ماردين: «قد يكون معه أثر ميرازا بالفعل.»

«هكذا رآه رجلنا قبل أن يجرفه الماء.» لم يؤكد جروان خروج القرص من القصر. مد خطًا قصيرًا من الميناء الجانبي إلى الطريق الذي راقبوا عنده السفينة أول مرة. «راقبوا ما تحمله حين تبحر. إذا أخذ القوة، فلن يبقى طويلًا بعيدًا عن بحر

السكون.»

«أأرسل رجالًا إلى المجرى؟»

«أرسل عيونًا إلى الطرق التي تخرج منه. لا تدخلوا القصر ثانية. تاليا تعرف الآن من حاول أخذ أثرها.»

كان ماردين ينتظر أمرًا آخر. رأى جروان يضع الحجر الأسود فوق البحر، ثم يرفعه ويعيده إلى الموضع نفسه. قال الملك أخيرًا: «الفتى الذي يحمل الخريطة، أريده حيًا.»

لم يذكر لماذا. خرج ماردين لتنفيذ الأمر، وتركه أمام رسم قديم ظلت زاويته مطوية سبعمئة عام. كان جروان يعرف الآن أن وارث أثيرا حي، لكنه لم يعرف اسمه، ولم يعرف أن القرص الذي ظنه معه عاد إلى حوض ميرازا.

وصل الدواءان مع قارب الصباح. كان نائل يطابقهما بقائمة معالج إيلارا حين دخلت سافيرا إلى المخزن تحمل ورقة أخرى. لم تضعها فوق صندوق الأدوية؛ ناولتها إلى أوران وانتظرت حتى قرأها.

«هاروك سقطت»، قال.

توقف رائف عن شد الحبل الذي يثبت الصندوق. رفعت إيسا رأسها، ويدها المصابة داخل حمالة من قماش. أخذ نائل الورقة من أوران. جاء الخبر مع رجال فروا من رهفان إلى الساحل:قتل فاريك داخل قصره، وأصدر إيردان أوامره باسم جروان. لم يجدوا نيرفا بين القتلى أو الأسرى، ولم يعرفوا أين ذهبت.

قال أوران: «رجال زافرين حاولوا إخراج قرص ميرازا من حوضه. وإيردان ّسلم رهفان لجروان. حلقة رهفان هي ما سيبحث عنه بعد ذلك؛ رأيتها مّعلقة في حزام كاهر يوم جاء إلى إيلارا.»

لم يذكر استجواب اللص مرة أخرى؛ كان نائل قد سمع اعترافه في قاعة تاليا. أخرج من حقيبته خريطة الطريق، ووضع إصبعه عند هاروك. يحتاجون إلى عبور البحر أولا، ثم إلى طريق ّبري تحرسه الآن قوات إيردان. وكل ساعة تمر تمنحه وًقتا للعثور على الأثر أو اعتراض من خرج به.

قال أوران: «نبحر إلى رهفان اليوم. إذا كانت نيرفا حية، فقد تعرف أين أخفت الحلقة.»

«والدواء؟» سأل نائل.

لم يجب أوران بسرعة. نظر إلى الصندوق الذي جمعته سافيرا، ثم إلى الأسماء المكتوبة على الورقة. «أعود به أنا حين أستطيع. أو نعودً معا بعد أن نعرف مصير الحلقة.»

«لا تستطيع فتح الطريق وحدك.»

«لهذا أطلب منك أن تأتي معي إلى رهفان أولا.» أبقى إصبعه على الخريطة. «إن أخذ جروان القوة قبلنا، قد يعجز أهل إيلارا عن الخروج حتى لو حملنا إليهم كل دواء في ميرازا.»

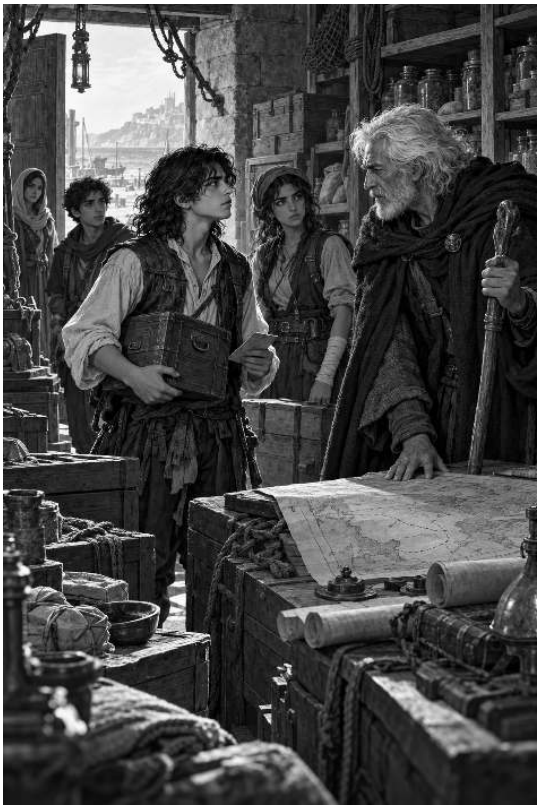

رفع نائل الورقة عن الصندوق. كانت فيها أسماء أشخاص رآهم، لا وَصفا عًاما

لأهل مدينة بعيدة. تذكر أليثا وهي تضيف أسماء المعالج قبل أن يغادر، ثم تعيد الشريط إلى معصمه. وعدها بما يستطيع إحضاره قبل أن يعدها بالقوى السبع.

قال: «أفهم ما قد نخسره في رهفان. ولا أعرف إن كانت نيرفا أخرجت الحلقة أو بقيت داخل القصر. لكن هذا الصندوق جاهز، وهناك من ينتظره الآن.»

كانت سافيرا واقفة عند الباب. لم تتدخل لتدافع عن الأدوية التي جمعتها، ولم تطلب منهم الإبحار. اقتربت إيسا من الخريطة، ورسمت بإصبع يدها السليمة طرًيقا من الميناء إلى الرأسين اللذين دخلا منهما بحر السكون.

«إذا ذهبنا إلى إيلارا فلن تكون الرحلة كالأولى. نستطيع أن نصل إلى المرسى ونسلم الصندوق دون أن نبقى يًوما كاًملا.»

قال أوران: «قضينا يًوما هناك، ومضت خمسة أيام هنا. لا نعرف كم سيمضي هذه المرة، حتى لو عدنا من المرسى نفسه.»

سمع نائل التحذير كما قصده أوران. لم يكن التأخير ساعة محسوبة على خريطة؛ قد يعود فيجد الطريق إلى رهفان قدُ أغلق تمًاما. ومع ذلك وضع الورقة داخل حقيبته، ثم رفع الصندوق من المنضدة.

«نذهب إلى إيلارا أُولا. نسلم الدواء ونعود في الحال. بعدها نتجه إلى رهفان.»

لم يتحرك أوران ليأخذ الصندوق منه. «أنا أرى أن نسبق جروان إلى الحلقة.»

«وأنا أرى أنني إن تركت هؤلاء ينتظرون بعد أن صار الدواء في يدي، فسأبدأ الرحلة الجديدة بوعد مكسور.» نظر إليه مباشرة. «أعرف أن قراري قد يكلفنا أثر رهفان. سأتحمل ما نجده حين نعود.»

طال نظر أوران إليه، ثم طوى خريطة الطريق البري وناولها له. لم يوافق على حسابه، لكنه لم ينتزع القرار من يده. أخذ رائف الطرف الآخر من صندوق الأدوية، وسار معه نحو الرصيف.

لحقت بهما إيسا. كان قرص ميرازا محفَوظا في غلافه تحت ثوبها، بعًيدا عن يدها المصابة. قبل أن تصعد السفينة، ألقت نظرة على القوارب خارج المجرى الجانبي. لم تر ما يقترب منهم، لكنها عرفت أن جروان صار يبحث عن السفينة السوداء، وأن فتح طريق أثيرا هذه المرة قد يفتح الطريق لمن يتبعها أيضا.

خرجت السفينة السوداء من المجرى الجانبي قبل أن يضيق الضوء على سطح الماء. كان صندوق الأدوية مثبّتا بين حبال المؤخرة، وورقة الأسماء في حقيبة نائل. لم يبتعدوا كثيرا حتى رأى رائف قاربا صغيرا يغادر وراءهم، لا يقترب ولا يغير وجهته كلما غيروها.

أشارت إيسا إليه بيدها السليمة. «لم يخرج للصيد.»

كان أوران عند الدفة. نظر إلى امتداد الساحل ثم إلى نائل. «إذا رأى موضع عبورنا فلن يحتاج جروان إلى أن يجد الخريطة.»

لم يطلب نائل منه الرجوع. قال لإيسا: «أتعرفين طريقا يسبقنا فيه القارب ثم يفقدنا؟»

هزت رأسها نحو صف الصخور التي بدت من بعيد كأنها حافة واحدة. «سيظن أننا نبحث عن فتحة بينها. ادفع السفينة إلى اليسار حين أشير لك، واتركه يرى اتجاهنا الأول.»

قادتها بين ضفتين مغمورتين لا يظهر منهما إلا زبد متقطع. تأخر القارب عند المدخل الواسع، حيث ينتظر كل من لا يعرف عمق الماء أن ينكشف الطريق. كانت السفينة السوداء قد تجاوزت الحافة القصيرة حين رفع الرجلان في القارب مجدافيهما ليتجنبا الصخر. لم يتابعاها. بقيت إيسا تراقبهما حتى ابتلعهما انعطاف الساحل، ثم أمرت أوران ألا يغير اتجاهه نحو الرأسين بعد.

انتظروا حلول الليل في خليج ضيق. كان قرص ميرازا ملفّوفا تحت ثوب إيسا، ساكنا؛ لم تمد يدها المصابة إليه. رائف فك حبل الصندوق وأعاد شده مرتين حتى لا يصطدم بجدار السفينة عند انقلاب التيار. أما نائل فأخرج الورقة، ومر بإصبعه على الأسماء التي حملها من إيلارا. لم يكن يعرف كم منهم سيظل ينتظر حين يصل.

عند آخر الليل أخذوا الطريق بين الرأسين. ثبت نائل الختم في قبضته وربط الحبل حول خصره، كما فعلوا في العبور الأول. حركت إيسا السفينة مع التيار الدقيق الذي لا تراه عين من فوق السطح، وأشار رائف إلى

موضع انقطاع الحجر تحت الماء. ظهر البرج الأثيري من وراء الضباب قبل أن

يروا مرسى المدينة.

لم يرسوا طويًلا. جاء وثيق ومعه رجل من دار العلاج؛ رأى الصندوق فنادى من يساعده على حمله. نزل نائل معهم، وأصر أن يسير حتى الدار بدل أن يترك الأدوية عند الرصيف. كانت أليثا تنتظره عند الباب، وفي يدها الورقة التي كتب عليها المعالج ما نقصهم. نظرت إلى الصندوق المفتوح، ثم إلى الشريط على معصمه.

«أحضرتها.»

«كما وعدتك.»

قرأ المعالج أول اسم على الورقة، واختار زجاجة صغيرة من بين القوارير. في الغرفة المجاورة كان طفل يتشبث بكم أمه كلما حاولت أن تسقيه. جلس نائل قرب الباب، فرأى المعالج يرفع الملعقة إلى فم الطفل. ابتلع الجرعة بعد تردد، وأخذت أمه نَفسا طويًلا قبل أن تفلت الكم الذي كانت تشده بين أصابعها.

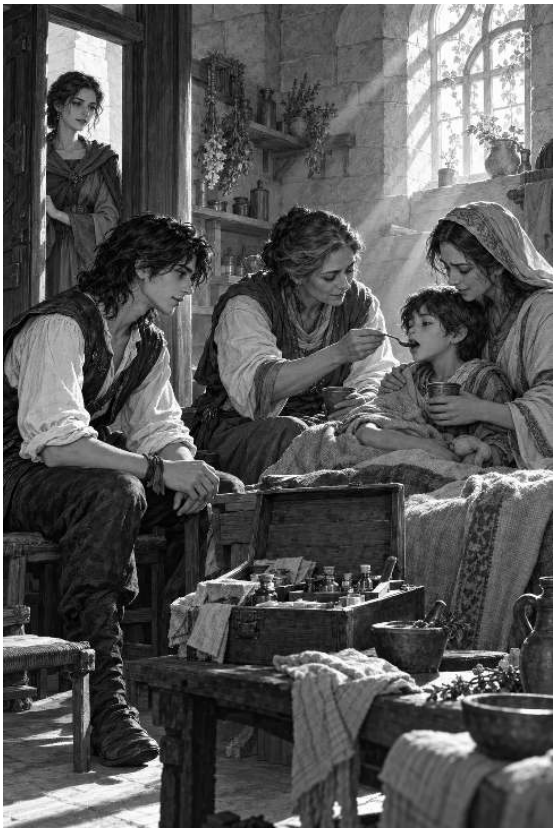

عاد المعالج إلى الصندوق، وبدأ يطابق بقية القوارير بالأسماء. لم يسأل نائل إن كان الدواء سيشفي الجميع؛ لم يكن في الغرفة من يستطيع أن يعده بذلك. راقب الأيدي وهي تنقل ما حمله من ميرازا إلى رفوف الدار، حتى لم يبق شيء في الصندوق. حين خرج وجد أليثا قد سبقته إلى المرسى.

«لن أطلب منك أن تبقى»، قالت وهي تنظر إلى السفينة. «لكنك عرفت الطريق إلينا الآن.»

لم يعطها موعدًا. رفع نائل معصمه قليلًا، حيث بقي الشريط مربوطًا. «سأعود لأوفي بالوعد الآخر.»

وقفت أليثا إلى جانب وثيق حين تحركت السفينة. رأى أوران ينظر إليها من عند الدفة؛ التقت عيناهما لحظة، ثم انشغل كل منهما بالحبل الذي يفصل الرصيف عن السفينة. لم يغب هذه المرة إلا ساعات من زمنها، ومع ذلك ظل ينظر إلى المرسى حتى اختفى البرج خلف الضباب.

عبروا الحد مجتمعين. لم يتبعهم قارب في العودة، ولم يتكلم أحد عن المدة التي ستظهر على الشاطئ الآخر. كانت إيسا أول من رأى قاربها القديم مربوطًا في موضع أعلى من أثر الماء الذي تركته، وعلى الحبل عقدة جديدة وضعتها جارتها لتمنعه من الانجراف.

عند بيت أبيها، وجدت الجارة تخرج بإناء طعام. توقفت أمام إيسا، ثم قالت: «ثمانية أيام، وهذه المرة تعودين من البحر كأنك خرجت أمس.»

دخلت إيسا. رفع أبوها رأسه من عند النافذة وقال الكلمة التي صارت تعرف كيف تنتظرها: «عدِت.» وضعت يدها فوق يده قليلًا، ثم خرجت لتلحق بالآخرين.

كانت سافيرا عند المرسى الجانبي حين عادوا إليه. رأت أيديهم خالية من الصندوق، فتركت ما بيدها واقتربت. لم تسأل أوّلًا عن البحر ولا عن الجرس. ناولت أوران رسالة جافة على الرغم من الرذاذ، وعينه على الشمع الذي يحمل علامة رهفان.

قرأها أوران، وتغير وجهه. مد نائل يده إليها. «ماذا حدث؟»

في الأيام التي غابت فيها السفينة السوداء وراء بحر السكون، خرجت نيرفا ورفال من آخر ممر يحرسه رجال هاروك. لم يتبعهما الجنود إلى طريق الرعاة فورًا؛ كانوا يفتشون الجسور وأبواب القرى. لكن إصابة نيرفا من ليلة الانقلاب أبطأت خطاهما كلما بدأ الطريق يصعد.

كانت الحلقة ملفوفة في قماش تحت ثوب رفال. لم يَرها منذ أخرجها من الخزانة إلا حين اضطر إلى تبديل موضعها في الحقيبة عند النهر. حلقة من معدن داكن، في جانبها خطان يتداخلان ولا يلتقيان. لم يصّدق يومها أن باب الخزانة انفتح ليده العارية، ولا أن نيرفا خاطرت بحياتها لتخرج هذا الشيء الصغير.

توقفا عند قرية نصف أبوابها مغلقة. على الجدار ورقة جديدة تحمل علامة إيردان وأمرًا إلى الحراس والتجار: مكافأة لمن يعيد الحلقة المسروقة من خزانة الملك، ومكافأة أخرى لمن يدل على السارق. لم يذكر الإعلان موت فاريك، ولم يصف من أمر رفال بإخراج الحلقة أصلًا.

قرأ رفال المبلغ مرتين. كان أكبر من أجره كله، وأكبر من ثمن الطريق الذي يستطيع قطعه وحده إذا أفلت من رهفان. أحست نيرفا بتوقفه، فرأت الإعلان من فوق كتفه.

«سيقولون إنك سرقتها حتى إن أعدتها إليهم»، قالت. «وهذا الرجل قتل أخي كي يصل إلى ما تحمله.»

«وأجرتي كلها لا تشتري حصانًا.»

«إن أردت الأجر الذي وعدتك به، فسأدفعه حين نصل إلى مكان آمن.»

طوى رفال الورقة بيده في الهواء كأنه يريد إخفاء الرقم، لكنه تركها في موضعها. سار خلفها من غير جواب. لم تكن الحلقة ملكًا له، وكان يعرف أن من يعيدها إلى إيردان قد يختفي بعد قبض المكافأة. ومع ذلك بقي المبلغ في رأسه، ومعه طريق آخر لا يمر بنيرفا ولا بجنودها.

قبل الغروب ظهر فارسان عند أسفل المنحدر. دفعته نيرفا إلى شق بين الصخور، ووقفت على الطريق وفي يدها سيفها. كانت تنقل ثقلها إلى ساقها السليمة؛ رأى رفال ذلك، ورأى كيف خدعت الفارسين بخطوات قصيرة حتى ظنا أنها تستطيع

النزول إليهما. وحين بلغا الموضع الضيق، ألقت حجرًا في الطريق السفلي فارتاع حصان أحدهما. لم تنتظر عودتهما؛ أمسكت بذراع رفال وصعدا من الشق الآخر.

لم تنجح في إخفاء ألمها بعد ذلك. عند شجرة سرو وحيدة جلست تفتح الضماد الذي تشرب دمًا من جديد. أخرج رفال قربة الماء وناولها إياها، ثم أخرج الحلقة ليتأكد أن القماش لم يتمزق عند الصخور. استقر المعدن في كفه، ومر فيه دفء خفيف لم يأت من الشمس الغائبة. أطبق عليه، وحاول أن يرد القماش فوقه. لم يتغير المعدن، ولم يجد ما يفسر به ما أحس.

قالت نيرفا وهي تعقد الضماد: «إنهم يعرفون أنك خرجت بها. سيلاحقونك ولو تركتها هنا.»

«كان يمكنك أن تتركني عند الجسر»، قالت بعد لحظة وهي تنظر إلى ساقها. «كنت ستسبقهم وحدك.»

«أنت تعرفين الطرق»، أجاب. أشار إلى المنحدر الذي تجاوزاه. «وأنا أعرف الأبواب. لم نصل بعد إلى مكان ينفعنا فيه أحد الأمرين وحده.»

كانت تلك أول مرة يتكلم فيها عن الطريق كأنهما سيكملانه معًا. حين نامت، ظل يسمع الفارسين في ذاكرته، ويحسب ما بينهما وبين المعبر التالي. عرف أنها لن تستطيع السير غدًا بالسرعة التي احتاجا إليها اليوم. وعرف أيضًا أن إعلان إيردان سيصل إلى كل قرية قبل أن يصلا.

نزع نصف القطع النقدية التي أعطته إياها نيرفا، ووضعها تحت القربة. بقي معه النصف الآخر، والحلقة. وجد ضمادًا نظيفًا في حقيبته، فتركه إلى جانب الماء حيث تبلغ إليه يدها حين تستيقظ. لم يكتب كلمة. لو بقي ليشرح ما يفعل لما استطاع أن يذهب.

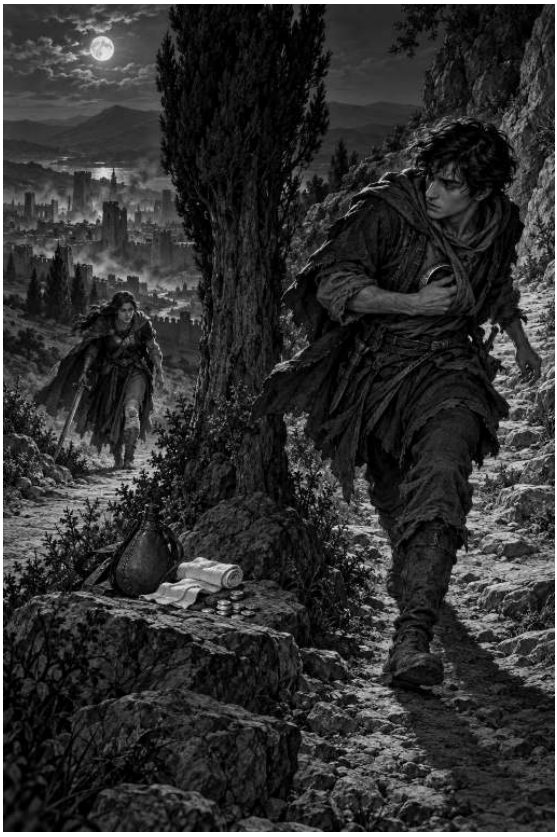

عند أول تفرع ضيق للطريق، التفت إلى السرو. كانت نيرفا ما تزال في مكانها، والسيف قريب من يدها. لم يَر الفارسين في السفح، لكن الطريق المفتوح أمامه لم يبُد طريق نجاة. شد القماش حول الحلقة ومضى وحده.

استيقظت نيرفا على صوت حجر يتدحرج من أعلى المنحدر. أمسكت سيفها قبل أن ترى القربة والضماد والنقود. كان الموضع الذي نام فيه رفال خاليًا. رفعت رأسها نحو التفرع، ثم نحو الطريق الذي جاءا منه. لم تأخذ وقتًا لتلعنه؛ منحت ساقها ما تحتاجه لتنهض، وربطت الضماد الجديد بإحكام. الآن صار عليها أن تجد الرجل الذي يحمل الحلقة قبل أن يجده صائدو المكافأة.

بسط أوران الرسالة على حافة صندوق فارغ، وأبقى كفه فوق طرفها حتى لا يقلبها الهواء. لم يكن فيها وصف لمعركة جديدة، بل إعلان نُسخ ووُزّع على المرافئ والمعابر: مكافأة لمن يعيد حلقة مسروقة من خزانة ملك رهفان، ومكافأة

لمن يدل على حاملها.

قرأ نائل السطر الأخير مرتين.

«إذا لم يأخذها إيردان.»

قالت سافيرا: «لو كانت في يده لما دفع كل هذا المال للعثور عليها. وصلت نسخة إلى تجار الساحل، وأخرى إلى أصحاب السفن. يريد أن يغلق البحر في وجه من يحملها.»

كانت الورقة تصف معدنًا داكنًا وخطين متداخلين، وتطلب تسليم الحلقة إلى حراس هاروك. لا اسم للسارق، ولا ذكر لنيرفا. تحت الإعلان كُتبت عقوبة كل من يؤوي الهارب أو يساعده على اجتياز الحدود.

مرّر أوران إصبعه على وصف الحلقة.

«هي.»

نظر نائل إلى القوارب الراسية خارج المجرى. ثمانية أيام. حين اختار حمل الدواء، كان الأثر مهدّدا داخل مملكة سقطت؛ والآن صار في يد شخص يطارده كل من قرأ المبلغ المكتوب أسفل الورقة.

قال: «هل يعرف أحد أين شوهد حاملها؟»

«تصل أخبار عن رجل عند المعبر، وآخر في قرية، وثالث ركب سفينة. كل من يريد نصيبًا من المكافأة يضيف اسم مكان.» أعادت سافيرا طي الغلاف. «لم يصلنا خبر يمكن الوثوق به.»

«ونيرفا؟»

«ما زالت غائبة.»

رفع نائل عينيه إلى أوران. انتظر أن يعيد عليه ما قاله قبل الرحلة، لكن أوران كان قد أخرج خريطة الساحل ووضعها إلى جانب الإعلان.

«إذا كان حامل الحلقة يحاول الابتعاد عن هاروك، فلن يدخل ميناء كبيرا. سنبدأ بالمراسي التي تصل إلى الطرق البرية.»

أشار إلى موضع على الساحل الشرقي لرهفان. لم يكن أقرب المرافئ إلى العاصمة، لكنه اتصل بطريقين يمتدان داخل البلاد، وثالث يلتف حول المرتفعات.

مالت إيسا فوق الخريطة.

«نستطيع الاقتراب من هنا قبل أن يرانا حراس المرسى. وراء الرأس صخور تكسر الموج، لكن السفينة لن تمر بينها مّحملة كما هي.»

نظر رائف إلى الصناديق القليلة التي بقيت على الرصيف. «تركنا الحمولة في إيلارا.»

لم يقصد بها شيًئا آخر، ومع ذلك استقرت الجملة بينهما لحظة. تناول نائل الخريطة من تحت يد أوران.

«نبحر اليوم.»

طوى الإعلان ووضعه في حقيبته إلى جانب ورقة الأسماء، وسوى طرفيهما داخل غلاف الدفتر. لم يعد هناك ما يستطيع إصلاحه وهو واقف في ميرازا.

صعد رائف إلى السفينة ليفحص الماء والمؤن. تبعته إيسا، لكن سافيرا استوقفتها عند الحبل ومدت يدها إلى الضماد.

«أرينيها.»

فتحت إيسا أصابعها ببطء. كان الجرح قد انغلق عند طرفه، وبقي وسط الكف مؤًلما حين ّشدت الجلد. نزعت سافيرا الرباط الرطب وّلفت آخر جًافا، ثم ّمررت إبهامها تحت العقدة لتترك للأصابع مجًالا للحركة.

«لا تنتظري حتى تفقدي الإحساس بها لتتوقفي.»

نظرت إيسا إلى الغلاف الذي يخفي قرص ميرازا تحت ثوبها. «سأتوقف قبل ذلك.»

لم تطلب سافيرا رؤية القرص. أحكمت العقدة وتركت يدها.

على الرصيف، كان أوران يسأل عن آخر السفن القادمة من رهفان. أعطته سافيرا اسم تاجر حبوب يعرف المراسي الصغيرة، ثم أضافت أن خبًرا وصل من الاجتماع الثلاثي: وافقت تاليا وإيلان وإيرانا على اتفاق دفاعي محدود، وتبادل الإنذار والمساعدة إذا تعرضت إحدى الممالك لهجوم.

قال أوران: «هل تحركت قوات؟»

«ليس إلى رهفان. الاتفاق يحمي حدودهم.»

أعاد نظره إلى الخريطة. لم يكن ثمة جيش سيسبقهم إلى الحلقة.

حمل نائل آخر قربة إلى السفينة. عند العجلة، أخرج البوصلة وأثبتها في موضعها، ثم انتظر حتى استقرت إبرتها. لم يرفع الختم، ولم يحاول استدعاء الخط الذي قادهم إلى أثيرا. بسط خريطة الساحل على لوح جاف، ووضع إصبعه عند الرأس الذي اختارته إيسا.

وقف أوران إلى جانبه.

«حين نصل، نسمع أوّلًا. لا نسأل أول رجل عن الحلقة.»

«نسأل عن الطرق المغلقة، وعن القادمين من هاروك.»

«وعمّن يبحث عنهم الحراس.»

أومأ نائل، ثم نقل إصبعه إلى الطريق الخارج من المرسى. «إذا كان الإعلان قد وصل إلى هنا، فقد سبقنا إلى كل هذه المواضع.»

«نعم.»

أبقى نائل إصبعه على الخط قليلًا، ثم طوى الخريطة ووضعها حيث تستطيع يده بلوغها سريعًا.

فكّت سافيرا الحبل الأخير. دفعت إيسا السفينة بعيدًا عن الرصيف بعمود قصير، مستعينة بيدها السليمة، بينما شد رائف الشراع. أخذت الريح القماش دفعة واحدة، وتحرك الهيكل الأسود حتى انفتح الماء بينه وبين حجارة المرسى.

لم يلوحوا طويلًا. بقيت سافيرا عند طرف الرصيف، ثم رجعت إلى المجرى المؤدي إلى القصر.

حين تجاوزوا آخر صخور ميرازا، أخذ أوران الدفة، ونزل رائف ليثبت ما يمكن أن يتحرك في الأسفل.

التفتت إيسا إلى البحر خلفهم. بقي شراع صغير عند حافة الأفق منذ غادروا المجرى، ثم انعطف واختفى وراء الرأس. تابعت موضعه بعينيها، وقالت لأوران: «قد يصل خبرنا إلى رهفان قبلنا.»

وقفت إيسا عند المقدمة تقرأ لون الماء أمامهم، فيما جلس نائل قريبًا منها وأخرج الإعلان مرة أخرى.



نظر إلى المبلغ، ثم إلى العقوبة المكتوبة تحته. الرجل الذي يحمل الحلقة قد يكون هاربًا خائفًا، أو سارقًا يفتش عن مشترٍ، أو شخصًا لا يعرف أصلًا ما أخرجه من الخزانة. لم يكن في الورقة ما يميّز واحدًا من الآخر.

قال لإيسا: «كل من يراه سيرى هذا المال.»

التفتت إليه، ثم إلى الإعلان في يده.

«لهذا سيختبئ من الذين يريدون مساعدته أيضًا.»

طوى نائل الورقة. أمامهم امتد البحر خاليًا، لكن الطرق التي سيصلون إليها كانت تمتلئ بالمطاردين.

أطفأت إيسا المصباح قبل أن تدور السفينة خلف الرأس الصخري. كان ضوء الفجر يكشف أعلى المنحدر، فيما بقي الخليج الصغير في الظل. أشارت إلى شق بين كتلتين من الحجر، ودخلت بهما حتى اختفى الشراع عن البحر المفتوح. أنزل رائف المرساة ببطء، وأمسك نائل السلسلة معه كيلا ترتطم بحافة الهيكل.

من هناك رأوا المرسى على الجانب الآخر من الرأس. ثلاثة قوارب صيد تنتظر خارج الحاجز، ورجل مسلح ينتقل بينها على زورق صغير. كلما فرغ من قارب أشار إلى صاحبه أن يدخل، ثم صعد إلى الذي يليه.

راقبت إيسا حركة الماء بين الصخور.

«يمكننا تركها هنا حتى المساء. بعد ذلك سيرتفع المد.»

ثبت أوران الحبل حول نتوء حجري ونظر إلى الطريق الصاعد من الشاطئ.

«نعود قبل أن يرفعها المد.»

نزلوا تبّاعا، وحمل رائف كيسًا فارغًا للمؤن. أبقى نائل العصا إلى جانبه وعطّى حقيبته بطرف ردائه. ساروا فوق الحصى حتى بلغوا طريقًا تنزل فيه عربات صغيرة إلى المرسى. لم يكن الحراس يوقفون الخارجين وحدهم؛ كانوا يسألون القادمين أيضًا عمّا رأوه في البحر.

عند أول مخزن، انحنى رجل فوق سلة سمك، بينما وقف حارس يمنعه من رفعها.

«سألتك عن لونها.»

«كل خشب يبتل يصير داكنا.»

ضرب الحارس السلة بطرف رمحه، فانزلقت سمكتان إلى التراب.

«هيكل أسود، وليس خشبًا مبتلًا. وصل الأمر من هاروك. إن رأيتها ثم سكت، فلن ينفعك هذا الجواب.»

تابع أوران سيره من غير أن يلتفت. دخلوا بين مخزنين، حيث انقطع عنهم نظر الحارس. شدّت إيسا طرف ردائها فوق يدها المصابة.

«الشراع الذي رأيناه.»

قال أوران: «قد يكون هو. لن ننتظر لنعرف.»

كان إعلان المكافأة مثبتًا على باب تاجر حبوب. وقفت تحته امرأة تحاول قراءة السطر الأخير، ثم ابتعدت حين اقترب رجلان يحملان سيفين قصيرين ولا يرتديان زي الحرس. أحدهما أشار إلى الطريق الصاعد من المرسى، والآخر ظل ينظر إلى المبلغ.

دخل رائف الدكان وطلب خبزًا وقليلًا من التمر. وضع التاجر ما طلبه في الكيس، وأعاد إليه قطعة نقدية مشقوقة.

«خذ غيرها. لن يقبلوها عند المعبر.»

قال رائف: «سنخرج من طريق المرتفعات.»

رفع الرجل رأسه. «إذا اشتروا ماء أيضا. الطريق السفلي أُغلق.»

كان أوران يتفحص قرب الماء المعلّقة بجانب الباب.

«بسبب السارق؟»

«بسبب كل من يبحث عنه.» دفع التاجر الكيس نحو رائف. «منذ جاء الإعلان صاروا يوقفون الناس عند الجسر. واليوم خرجوا وراء امرأة تسأل عنه. معها سيف، وتجر ساقها كأنها تحمل حجرًا.»

ثبتت يد أوران على القربة.

«إلى أين؟»

«عند مقطع الحجارة القديم. أرادت الصعود خلفه. قلت لها إن الدرج تهدّم، لكنها لم تستمع.»

أخذ أوران القربة، ودفع ثمنها كاملًا. لم يسأل الرجل عن اسم المرأة. حين خرجوا كان الرجلان اللذان وقفا تحت الإعلان قد اختفيا من الطريق.

بلغوا المقطع قبل أن ترتفع الشمس فوق الجرف. ظهرت أكوام الحجر أولًا، ثم عربة مقلوبة عند المدخل، وخلفها رجل يتراجع وذراعه معلقة على صدره.

توقف نائل وراء صخرة منخفضة.

كانت المرأة في وسط الساحة الضيقة، وظهرها إلى جدار قطعت فيه درجات تنتهي بعد ارتفاع رجلين. ساقها اليسرى ملفوفة بضماد داكن، وسيفها منخفض حتى ظن أحد مهاجميها أنها تأخرت في رفعه.

اندفع إليها.

خطت نحوه بساقها السليمة، وأمسكت ساعده قبل أن يكمل ضربته. سمع نائل ارتطام قبضتها بواقي ساعده، ثم ارتفع الرجل عن الأرض وسقط على رفيقه. تدحرجا معًا إلى قاعدة العربة. لم تتبعهما؛ غرزت طرف سيفها في التراب لحظة تحمل بها ثقلها، ثم انتزعته قبل أن يقترب الثالث.

كان على الأرض رمح مكسور عند مقبضه. قربه رجل يحاول النهوض ولا يستطيع.

همست إيسا: «من هذه؟»

قال أوران: «نيرفا. فارسة رهفان.»

التفتت إليه. «التي قادت الغزو على قاسران؟»

«هي.»

نظر نائل إلى الدرج المنهار خلفها، ثم إلى الرجلين اللذين بدآ يلتفان من أعلى المقطع. كانت تستطيع إسقاط من يدخل مدى سيفها، لكنها كلما حاولت الوصول إلى الدرج خانتها ساقها واضطرت إلى العودة إلى الجدار.

قال: «إذا أخذوها ضاع أقرب طريق لنا إلى الحلقة. نخرجها من هنا.»

لم يجب أوران. كان ينظر إلى المسافة بين العربة والجرف، ويحسب عدد الرجال الذين ما زالوا قادرين على القتال. وضع يده على كتف رائف وأشار إلى الحجارة المتراكمة فوق المدخل.

«حرّك تلك. لا تقف تحتها.»

زحف رائف من خلف الصخرة. تبعته إيسا إلى جانب العربة، فيما بقي نائل عند حافة المقطع. رفع بصره إلى الدرج المكسور؛ كان الطريق الذي أُنشئ من أجله واضحًا، صعود قصير إلى سطح الجرف، لكنه انتهى حيث اقتُلعت منه كتلة كبيرة. أبعد نظره عنه.

على الجانب الآخر، وراء شجيرة يابسة، امتد خط أخفض من الدرج. لم يكن ممرًا ظاهرًا، بل اختلافًا ضئيلًا في ميل الحجارة، سطّحا مسحته أقدام قديمة ثم غطاه التراب. وضع نائل كفه على الصخر. أحس بالامتداد ينعطف خلف الجرف، يتسع قليلًا ثم يصعد في التفاف طويل بدل الدرج الحاد.

لم يحرك شيئًا. دخل بين الشجيرة والحجر، وجس الأرض بطرف العصا. ثبتت تحت قدمه.

«أوران. من هنا.»

التفت إليه أوران، فرأى الموضع الذي اختفى فيه نصف جسده. أشار إليه أن يتقدم خطوة أخرى ويتأكد.

في الساحة، رفع أحد الرجال قوسًا صغيرًا. سقطت أولى الحجارة قبل أن يثبت السهم. ارتطمت بالعربة، ثم انحدرت كتلة أكبر بينه وبين نيرفا. تراجع وهو يحمي وجهه، وصاحت إيسا من خلف العجلة:

«إلى يمينك!»

لم تتحرك نيرفا نحو الصوت فورًا. رأت رجلًا يلتف إلى إيسا، فقبضت على الرمح المكسور وضربت به جانب خوذته. اصطدم بالعربة وانحنى فوقها. دفعت نيرفا مؤخرة الرمح في صدره، وأبعدته عن الطريق قبل أن تلتفت إلى أوران الذي ظهر عند الشجيرة.

«الدرج لن يحملك»، قال. «هنا مخرج.»

ألقت عليه نظرة سريعة، ثم نظرت إلى نائل الواقف في الشق.

من خلف العربة صاح رجل: «لا تدعوها تبلغ الطريق!»

تحركت نيرفا. قطعت الخطوات الأولى بقوة أخفت عرجها، لكن ساقها انثنت عند الحجر الأخير. مدت إيسا ذراعها السليمة، فأمسكت بها الفارسة واستعادت توازنها. لم تستند إليها طويلًا؛ دفعتها إلى الأمام حين رأت رجلًا ينهض من وراء الكتلة الساقطة.

أمسك أوران بطرف العصا التي مدها نائل، وثبتها بينهما لتستعين بها نيرفا. عبرت الشق، وتبعها رائف بعدما دفع ما بقي من الحجارة إلى أسفل. دوّى سقوطها في الساحة، فغطى لحظة على وقع أقدامهم.

قادهم نائل حول الجرف. كان الممر أضيق مما بدا له من بعيد، لكنه وجد مواضع القدم كما أحسها: حجر مائل، ثم حافة مستوية تحت عشب جاف، ثم انعطاف يخرج بهم من نظر الرجال. كلما بلغ موضعًا تردد عنده الآخرون، وضع قدمه أولًا

وأشار إلى ما يحتمل وزنهم.



عند الانعطاف الثاني توقفت نيرفا، ونظرت إلى امتداد الطريق فوقها.

«هذا المسلك »

كانت تعرف المقطع. رجالها مروا من هنا، وكانت العربات تُسحب إلى الدرج قبل تهدّمه. أما هذا الخط بين الصخور فلم تر أحدًا يسلكه.

نظرت إلى العصا في يد الفتى.

«من أين عرفت »

ارتطم سهم بالصخر تحتهم، وتناثر فتاته على حذائها. دفعها أوران إلى متابعة السير، وبقي خلفها حتى تجاوزت الانعطاف.

لم يسرعوا إلا حين اتسع الطريق. أشار نائل إلى نتوء أعلى منهم يحجبهم عن الساحة، فصعد رائف أولًا ومد ذراعه لإيسا. وصلت نيرفا بعدهما، وسيفها ما زال في يدها. وضعت كفها على الصخر، وسحبت جسدها إلى الأعلى بقوة كتفيها، ثم جلست وساقها ممدودة أمامها.

لم تطلب ماءً.

«الرجلان اللذان مرّا بالمدخل وصعدا هل أخذا الطريق الشرقي؟»

نظر رائف إلى أسفل، لكنه لم يَرَ من الساحة إلا طرف العربة.

«لم أرهما بعد الانعطاف.»

أرادت النهوض.

قال أوران: «إن عدت الآن وجدوا الطريق بنا جميعًا.»

«قد يسبقانه.»

ناولها القربة، وبقيت يدها بعيدة عنها. نظر إليها أوران وهي تراقب الموضع الذي قد يظهر منه الرجلان؛ عرف ذلك الإصرار على تتبع الخطر المتجه إلى شخص آخر، ولو كان الجرح يفتح تحت الثوب. أزاح القربة إلى جوارها بدل أن يلح، وقال:

«نخبرك بما رأيناه. ثم تختارين طريقًا تستطيع ساقك إكماله.»

التفتت إليه للمرة الأولى كأنها تراه، لا كأنه رجل يقف عند منفذ. لم تجد في وجهه ما تعرفه.

أخذت القربة أخيرًا، وشربت جرعتين. بقي نائل عند فتحة الصخر يراقب الطريق. حين عاد إليها، كانت قد شدت الضماد فوق الجرح، لكن الدم وصل إلى أطراف أصابعها.

قالت: «لماذا تبعتموني؟»

أخرج الإعلان من حقيبته وفتحه أمامها.

لم تنظر إلى المبلغ. قرأت وصف الحلقة، ثم رفعت عينيها إليه.

«وهل جئتم لتقبضوا هذا؟»

«نريد أن نصل إليها قبل إيردان.»

«كل من قابلتهم يقولون إنهم يريدون الوصول إليها قبل غيرهم.»

طوى نائل الورقة ببطء. «لو أردنا تسليمك لانتظرنا عند الدرج.»

لم تجبه. انتقل بصرها إلى العصا، ثم إلى الطريق الذي خرجوا منه. ظل سؤالها

المبتور حاضرًا بينهما، لكنها أعادته إلى ما هو أقرب.

«من قال لكم إنها معي؟»

قال أوران: «التاجر قال إن امرأة تسأل عن الهارب. ظننا أنك تعرفينه، وأنك قد تدّلينا عليه.»

وضعت نيرفا السيف إلى جانب ساقها، بحيث تبقى قبضته في متناول يدها.

«اسمه رفال. أنا أرسلته إلى الخزانة.»

تبادل رائف وإيسا نظرة قصيرة. لم يعلّق نائل. كان يفكر في سؤالها عن الرجلين؛ لم تكن تسأل عمّن يلاحقها.

«وأين هو الآن؟»

نظرت إلى القربة في يدها، ثم نحو الطريق الذي يصعد فوق الجرف.

«ترك لي الماء، وأخذ الطريق الذي لا أستطيع صعوده.»

عرف رفال الرجل الذي يحرس الجسر من بعيد. كان قد رآه قبل يومين عند الطريق السفلي، ثم عند مخزن الحبوب صباح أمس. تغيّر الموضع، وبقي الإعلان نفسه مثبّتا إلى جانبه.

رجع قبل أن يراه.

خلال الأيام الماضية جرّب طريق العربات، ومجرى السيل، والممر الذي يسلكه باعة الفحم. عند كل منفذ وجد من يفتش الحقائب أو يسأل عن شاب خرج من هاروك. لم تكن وجوه الحراس كلها معروفة؛ بعضهم اشترى سيفًا بعد أن قرأ المكافأة، ووقف في الطريق ينتظر أن يصبح غنيًا.

عند أسفل المرتفع، رأى عربة تمر من الحاجز دون أن يرفع الحارس غطاءها. كان سائقها يحمل لوحًا صغيرًا معلّقا بخيط إلى عنقه. تبعه رفال بعينيه حتى انعطف إلى ساحة دار قديمة لوزن الحبوب.

عرف الباب. باع لصاحبه قبل عام إبزيمًا فضيًا، وقبض أقل من نصف قيمته. يومها لم يسأله الرجل من أين جاء به.

هذه المرة كان سيطلب منه أكثر من ثمن المعدن.

دار حول الساحة قبل أن يدخل. باب واسع للعربات، وغرفة مرتفعة تصل إليها درجات خشبية، ومخرج خلفي ينفتح على طريق ينزل إلى الوادي. رأى رجلًا عند ذلك المخرج يشحذ سكينًا، وآخر يصلح رباط سرجه قرب البئر. أبقى الحلقة تحت ثوبه، ودخل من الباب الذي يعرفه.

كان الوسيط جالسًا وراء منضدة عليها ميزان صغير. رفع رأسه إلى رفال، ثم نظر إلى ثيابه المغبرة وحذائه الممزق عند الجانب.

«ظننتك في هاروك.»

«خرجت.»

«أرى ذلك.»

وضع رفال نسخة مطوية من الإعلان على المنضدة، وأبقى يده فوقها.

توقف الرجل عن تحريك ثقل الميزان.

«تعرف من أخذها؟»

«أستطيع أن أحضرها. أريد نصيبي من المال، وطريقًا أخرج منه.»

عاد الوسيط بظهره إلى المقعد.

«المال عند إيردان.»

«إذا خذها إليه أنت.»

«ولماذا لا تذهب بنفسك؟»

رفع رفال يده عن الإعلان. ظهرت تحته العقوبة المكتوبة في آخره.

لم يبتسم الرجل هذه المرة. مد أصابعه نحو الورقة، فطواها رفال قبل أن يبلغها.

«ليست سرقة من بيت تاجر»، قال الوسيط. «سيسألون عمّن حملها، وعمّن ساعده، وعن المرأة التي كانت معه.»

«يمكنك أن تقول إنك اشتريتها من رجل لم تعرف اسمه. قلت ذلك من قبل.»

نظر الوسيط إلى الباب، ثم أشار إلى مقعد أمام المنضدة.

«أرني ما عندك أوّلا.»

ظل رفال واقفًا. أخرج طرف القماش بقدر ما يكشف حافة الحلقة والخطين المحفورين في معدنها. امتدت يد الرجل، فأعاد رفال القماش إلى صدره.

«المال والطريق.»

«انتظر هنا.»

نادى الوسيط أحد رجاله وطلب منه إحضار الكيس من الغرفة العليا. صعد الرجل الدرج، لكن رفال لم يسمع فتح صندوق. سمع خطوتين فوق رأسه، ثم احتكاك مزلاج في الخلف.

أدار عينيه نحو النافذة. كان الرجل الذي يصلح السرج قد تركه وصار واقفًا عند مخرج الوادي. أما صاحب السكين فدخل الساحة، ومسح النصل في ثوبه.

قال رفال: «لا تحتاج إلى كل هؤلاء كي تعدّ النقود.»

«ولا تحتاج أنت إلى الوقوف قرب الباب.»

دفع الوسيط مقعده إلى الخلف. لم يعد ينظر إلى وجه رفال، بل إلى الموضع المنتفخ تحت ثوبه.

أخرج رفال القماش ببطء. أبقى الحلقة في كفه داخل الكم، وجمع أطراف اللفافة حول قبضة من القطع النقدية أخذها من كيسه.

«لن تقترب مني حتى تضع المال هنا.»

ألقى اللفافة على الطرف البعيد من المنضدة.

رنّت النقود داخلها. اندفع الوسيط ليمسكها، وفي اللحظة نفسها ضرب رفال صحن الميزان إلى أعلى. ارتطمت الأثقال بوجه الرجل، وانقلب المقعد خلفه. قفز رفال فوق صندوق قصير بجوار الباب قبل أن يدخل صاحب السكين، وتعلق بحافة الدرج.

وصل الرجل إلى موضعه وضرب، فمزق طرف ردائه.

ترك رفال الرداء ينفلت عن كتفه، ودفعه بقدمه إلى وجهه. ارتقى الدرج وهو يسمع الوسيط يصيح من الأسفل:

«معه الحلقة! أغلقوا الباب!»

وجد الغرفة العليا مخزنًا ضيقًا. نافذتها مغلقة بمشبك صدئ، والباب الذي ظنه مخرجًا مقفل من الخارج. أدخل يده في بطانة حزامه وأخرج سلكًا معقوفًا. جسّ به شق الباب حتى لمس طرف المزلاج، ثم رفعه قليلًا وجذبه نحوه.

لم يتحرك في المحاولة الأولى.

ضرب رجل الدرج بقدمه من أسفل، فارتجت الألواح. ثبّت رفال السلك بسبابته، وأدار معصمه حتى انزلق الحديد من عروته.

فتح الباب على شرفة ضيقة فوق الساحة.

كان يستطيع القفز، لكن الرجل عند مخرج الوادي رفع رأسه في اللحظة نفسها. انسحب رفال وأغلق باب الشرفة خلفه، ثم سمع قدمي المطارد تبلغان أعلى الدرج.

صعد فوق كومة أكياس، ودفع لوحًا مفكوكًا تحت السقف. انحشر كتفه بين الخشب والجدار، فزفر الهواء من صدره وسحب جسده عبر الفتحة. مرّ النصل تحت حذائه قبل أن يضم ساقه الأخيرة.

خرج إلى سطح منخفض خلف الغرفة، وانبطح وراء حافته.

قبض على الحلقة ليتأكد أنها لم تسقط. كان المعدن بارًدا حتى آلمه باطن كفه، مع أن العرق بلّل ثوبه. لفه بالقماش الباقي ودسّه تحت الحزام.

في الأسفل، فُتح باب الساحة بعنف.

دخل رجل يسند ذراعه إلى صدره، وعلى خده خدش طويل. تعرّف رفال إلى أحد الوجوه التي كانت تتبعهما قرب الطريق السفلي، قبل أن يفترق عن نيرفا. وقف الرجل عند البئر، وحاول أن يشرب بيده السليمة.

خرج الوسيط من الغرفة وهو يمسح الدم من شفته.

«أين البقية؟»

«فوق المقطع. الفارسة خرجت من بين أيدينا.»

ثبت رفال كفه على حافة السقف.

قال الوسيط: «خرجت بساقها تلك؟»

«ساعدها غرباء. ثلاثة أو أربعة. صعدوا من جانب الجرف، ورجالنا يدورون ليقطعوا عليهم الطريق.»

«والشاب؟»

«لم نره معها.»

أشار الوسيط إلى الغرفة العليا.

«كان هنا قبل لحظة.»

ابتعد الرجل المصاب عن البئر، ونظر إلى الدرج. في الداخل انقلبت الأكياس، وصاح المطارد أن النافذة ما زالت مغلقة.

تراجع رفال على بطنه حتى بلغ الطرف الآخر من السطح. من هناك رأى مخرج الوادي: الرجل الذي كان يحرسه تقدم إلى الساحة ليسمع الخبر. وراءه امتد الطريق خاليًا بين جدارين منخفضين، ثم انحدر نحو أشجار التين. لو بلغها قبل أن يخرجوا، فلن يعرفوا أي مجرى أخذ.

سمع الوسيط يأمر رجلين بالصعود إلى الطريق الأعلى.

«لا تدعوا المرأة تمر. إذا أفلت الشاب منا، فسيعود إليها.»

بقي رفال ساكنًا حتى ابتعدت الخطوات عن أسفل السقف. بعدها تدلّى من حافته، ووضع قدمه على حجر بارز، وقفز إلى الأرض. انحنى خلف حوض فارغ، ثم عبر المخرج بخطوات سريعة من غير أن يركض.

لم يصح أحد.

بلغ أشجار التين، وتوقف عند أول مفترق. إلى اليسار انحدر الطريق نحو الوادي. كان يستطيع أن يرى جزءًا طويلًا منه، خاليًا من الحراس. إلى اليمين ارتفع مسلك ضيق خلف دار الوزن، يصل إلى كتف الجبل المطل على المقطع.



أخرج كيس نقوده، وشد عقدته، وربطه إلى حزامه. أعاد الحلقة إلى موضع لا تعوق فيه ساقه، ثم استدار وصعد.

عند أول صخرة سمع الرجلين على الطريق الأعلى. تركهما يمران فوقه، وتسلق بين جذور شجرة يابسة إلى الحافة التي تختصر انعطاف الطريق. وصل إليها قبلهما، وعبرها منحنيًا، متجهًا إلى المقطع.

لم يعودوا إلى الدرج.

قادتهم نيرفا بمحاذاة الجرف، تستند إلى الصخر عند المنعطفات وتبتعد عنه كلما اتسع الطريق. كانت تعرف مخرجًا يصل إلى ظهر المرتفع، ومنه يستطيعون النزول بعيدًا عن المرسى. لكنهم حين بلغوا موضعه رأوا رجلين فوق الحافة، وأحدهما يثبت قوسه على حجر.

شدّت نيرفا رائف إلى الخلف قبل أن يخرج من الظل. انغرس السهم في التراب حيث كانت قدمه.

«سبقونا.»

عاد أوران خطوتين نحو الطريق الذي جاءوا منه. وصلهم ارتطام حذاء بالصخر، ثم صوت رجل ينادي آخر من أسفل. صار المنعطف خلفهم مغلقًا أيضًا.

أشار نائل إلى تجويف في الجرف.

«احتموا هنا.»

دخلت إيسا أولًا، وتبعتها نيرفا وهي تراقب الحافة فوقهما. بقي رائف عند المدخل، والتقط حجرين بحجم قبضته. لم يكن التجويف عميقًا؛ خمس خطوات تنتهي بكتل متراصة تسرب بينها تراب قديم.

اقترب نائل من آخره. خلف الحجارة امتد فراغ لم يره، لكنه أحس باتجاهه تحت كفه. تحرك يمينًا حتى وجد طرف قوس منخفض، غطاه الركام ولم يطمسه. كان هناك طريق خرج منه رجال قبل أن تسقط هذه الكتل، وتركوا على الأرض خطًا ضحلًا من كثرة ما جرّوا فوقه الأحمال.

وضع طرف العصا في الخط.

قالت نيرفا: «لن نرفع هذا قبل وصولهم.»

لم يطلب منها أن تساعده. تبع بالعصا موضع الأرض تحت الركام، حتى أحس بالمسار يتجاوز أول كتلة ويستمر وراءها. تذكر الحجر الذي ارتجف فوق إيسا حين حاول حمل الممر كله، فرفع الطرف قليلًا وعاد إلى الجزء القريب.

احتك حجر بآخر.

التفتت نيرفا إلى الصوت. انزلقت الكتلة السفلى إلى الجانب ببطء، وانهال من فوقها التراب. أوقف نائل حركتها قبل أن تميل بقية الحجارة، ثم دفع طرف العصا على امتداد الخط. اتسعت الفتحة بما يكفي لمرور جسد منحن.

قال لأوران: «من تحت القوس. لا تلمسوا الحجر الذي فوقه.»

مرّ رائف أولا، ثم استدار ليساعد إيسا. انحنت نيرفا عند الفتحة، لكنها بقيت تنظر إلى العصا.

«أنت حامل الخريطة»

ضرب سهم حافة التجويف، فقفزت شظية عند كتفها. دفعتها إيسا من مرفقها إلى الداخل. عبرت نيرفا، وتبعها أوران، ثم سحب نائل عصاه ودخل وراءهم. لم تغلق

الحجارة؛ بقيت الفتحة السوداء في موضعها، وظهر عندها بعد قليل أول ظل للمطاردين.

خرج الممر إلى ضوء قِاس.

كان هناك جسر حجري ضيق يمتد فوق شق في المرتفع، وعلى الجانب الآخر انحدر طريق بين أشجار قصيرة باتجاه الساحل. بقي من الجسر طرفان، وبينهما فجوة أعرض من أن تقفزها نيرفا بساقها المصابة. انخفض أحد نصفيه عن الآخر، واستند مائلا إلى رف صخري في الشق. وفي الأسفل تراكمت حجارة سقطت معه.

وصل نائل إلى الحافة وتوقف.

أحس بالطريق يمتد أمامه، واضحا حتى الموضع الذي انكسر فيه. وضع العصا على الحجر، وتتبع بها طرفه. لم يجد ما يدفعه جانبا، ولا فرًاغا محجًوبا يستطيع فتحه. الطريق الذي قادهم إليه كان هنا فعلا، لكن جًزءا منه لم يعد في مكانه.

قال أوران: «كم بين الطرفين؟»

نظر رائف إلى الفجوة، ثم إلى نيرفا.

قبل أن يجيب، سقط حصى من الحافة فوقهم.

ظهر رفال بين شجرتين، وانزلقت قدمه إلى الطريق. رفع يديه حين رأى سيف نيرفا يتجه نحوه، ثم أشار خلفه.

«الرجلان اللذان عند المخرج ينزلان من الأعلى. البقية في الممر.»

ثبتت عيناها عليه. لم تقل شًيئا.

نظر رفال إلى الجسر، فانخفضت يداه.

«كان متًصلا من قبل.»

قالت إيسا: «ليس الآن.»

وصل صوت أقدام إلى داخل الممر. اقتربت نيرفا من فمه، وأبقت سيفها على ارتفاع الخصر. وقف رائف خلف نتوء إلى جانبها، والحجران في يديه.

أخرج رفال الحلقة من تحت الحزام. انكشف المعدن الداكن بين أصابعه، فرأى نائل الخطين المتداخلين المحفورين على جانبه. تقدم أوران نحوه.

«ضع يدك على الحجر.»

ركع رفال عند طرف الجسر ومد كفه الحرة. ضغط بها، ثم ّحرك أصابعه على السطح الخشن. لم يحدث شيء.

«قفل الخزانة انفتح حين لمسته بيدي العارية.»

قال أوران: «لعل القفل استجاب لك. جرب الحلقة، وأبق يدك الأخرى هنا.»

قبض رفال على المعدن ونظر إلى الفجوة. لم يتغير وجه الحجر تحت كفه. شد ذراعه كأنه يحاول ّجر النصف المقابل إليه، فصدر من الأسفل احتكاك قصير، ثم توقف.

«لا تشد»، قال أوران. «اجمع الطرفين كما تجمع حَبلا انقطع.»

رأى نائل أصابع رفال تنبسط على الجسر. انخفض كتفاه قليًلا، وتحولت عيناه من الفجوة إلى حافتي الكسر.

اهتز الحجر تحت أقدامهم.

ارتفع الطرف الغائر عن الرف الصخري، بطيًئا أوًلا، حتى تدحرجت الحصى من سطحه إلى الشق. تحركت كتلة كانت عالقة تحته، واستدارت في مكانها. لامس طرفها الحجر الذي بقي ثابًتا، ثم اندفعت بين الجزأين. تتابعت الحجارة وراءها، كل واحدة تعود إلى شق يطابق حافتها، حتى التقى نصفا الجسر بصوت سمعه المطاردون داخل الممر.

أطل رجل من الفتحة.

قذفه رائف بأحد الحجرين، فأصاب كتفه وأعاده إلى الظل.

قال أوران: «اعبروا.»

خطا نائل أوًلا. تحركت تحت حذائه حبة حصى، لكن الحجر الأكبر بقي ثابًتا. تجاوز موضع الكسر ووصل إلى الطرف الآخر، ثم استدار ومد يده.

عبرت إيسا خلفه، ويدها السليمة تنزلق على الحاجز. تبعتها نيرفا بخطوات قصيرة، تحمل وزنها على الساق السليمة وتجر الأخرى كلما بلغت فاصًلا بين

حجرين. أبقت وجهها نحو الممر حتى تجاوزت منتصف الجسر.

كان رفال ما يزال راكعًا عند بدايته.

«لا أستطيع النهوض.»

وضع أوران يده تحت ذراعه.

«أبقِ كفك على الحجر.»

انتقل رفال من ركبته إلى قدميه، وراح يمرر يده الحرة على الحاجز المنخفض. بقيت الحلقة في قبضته الأخرى. حين خطا، ارتفعت كتفاه برجفة حادة، كأن ريحًا باردة مرت تحت ثوبه.

عبر رائف مسرعًا من جانبهما، ثم وقف عند الحافة الأخرى إلى جانب نائل. لم يرم الحجر الثاني؛ أبقاه في يده وهو يراقب فم الممر.

خرج رجل، ثم آخر.

تقدّم أوران مع رفال. كانت كف الشاب تحتك بالحاجز، تترك على الغبار خطًا متقطعًا من العرق. اقتربا من موضع الكسر، فتعثرت قدمه بحافة بارزة. رفع يده غريزيًا ليحفظ توازنه.

انخفض الجسر تحتهم.

انفتح شق بين حجرين، واندفع الهواء من الأسفل محمّلًا بالغبار. أمسك أوران بحزام رفال قبل أن يسقط، وضرب رفال الحاجز بكفه المفتوحة.

توقفت الحجارة.

بقي الشق ظاهرًا، بعرض إصبع، تحت قدم أوران.

«يدك»، قال. «لا ترفعها.»

أطبق رفال فكه. تحرك نحو نائل، لكن ركبتيه أخذتا ترتجفان، وبدت أصابعه حول الحلقة شاحبة إلى حد أن نائل رأى أثر الأظفار في راحته.

بلغ المطارد الأول بداية الجسر. رأى الفجوة الصغيرة بين الحجارة، فتردد، ثم صاح بمن خلفه أن يتقدموا.

لم يبق بين رفال والحافة إلا خطوتان.

مد نائل ذراعه. حاول رفال الإمساك بها باليد التي تحمل الحلقة، فلم تنفتح أصابعه. مال جسده إلى الجانب، وفقدت ساقه قوتها.

وضعت نيرفا سيفها على الأرض.

مّدت ذراعها إليه، فقبضت على ساعده فوق المعصم، وسحبه نائل من كتفه. ظلت كفه الأخرى على الحاجز، تنزلق عليه حتى بلغ آخر حجر.



قال أوران: «الآن.»

سحباه إلى الأرض الثابتة. خطا أوران وراءه، وفي اللحظة التي انفصلت فيها كف رفال عن الحجر انخفض طرف الجسر من جديد.

كان المطارد الأول قد وضع قدمه على بدايته.

تحرك الحجر تحت حذائه، فانتزع قدمه وتراجع إلى الرجل الذي خلفه. انفرجت الوصلات، وهبط النصف المائل إلى الرف الصخري، ثم سقطت الكتل التي ملأت الفجوة واحدة بعد أخرى. دّوى ارتطامها في الشق، وارتفع الغبار بين الطرفين.

استردّت نيرفا سيفها.

كان رفال جالسًا على التراب، لا يستطيع تثبيت قدميه. ارتج جسده حتى اصطكت أسنانه، وحين وضع نائل يده على معصمه وجده بارِدًا كالحجر المغمور في ماء الشتاء.

نزعت إيسا رداءها ووضعته حول كتفيه. حاول أن يشده، لكن قبضته بقيت مغلقة.

جلس نائل أمامه.

«اترك الحلقة.»

هز رفال رأسه، ولم يعرف نائل إن كان يرفض أو يعجز. أمسك بمعصمه وبدأ يفك أصابعه واحدة بعد أخرى. احتاج الإبهام إلى دفعة أطول؛ كان مطبَّقًا على المعدن حتى انحفر أثره في الجلد.

أفلتت الحلقة أخيرًا إلى كف نائل.

لم تتحرك الحجارة، ولم يشعر في المعدن إلا ببرودته. لفه بطرف القماش الخارج من حزام رفال، ووضعه داخل حقيبته، ثم أعاد يد الشاب تحت الرداء.

على الجانب الآخر وقف المطاردون عند الفجوة. رفع أحدهم قوسه.

أخذ رائف رفال من تحت ذراعه، وساعده نائل على النهوض. قادتهم إيسا بعيدًا عن خط الجسر، فيما بقي أوران ونيرفا خلفهم حتى حجبهم الصخر.

عند أول منعطف، انكشف البحر بين الأشجار. كان الضوء قد مال نحو الغرب، والخليج الذي تركوا فيه السفينة مختبئًا وراء الرأس.

نظرت إيسا إلى الماء، ثم إلى الظل الصاعد على الجرف.

«علينا أن نصل قبل المد.»

كان الماء قد ابتلع أولى الصخور حين وصلوا إلى الخليج.

توقفت إيسا عند حافة المنحدر، تتبع بعينيها الخط الذي عبرته صباحًا. لم يبق منه إلا ظهور سوداء تفصل بينها مياه تتحرك في اتجاه واحد. وراءها ارتفعت السفينة وانخفضت، وشدّ حبلها المثبت في الصخر حتى استقام فوق الماء.

«من هنا. لا تنزلوا إلى الرمل.»

سبقتهم على الصخور، ورفعت ذراعها المصابة إلى صدرها حين ضربتها موجة عند الركبتين. بلغت الحبل وأمسكته بيدها السليمة، لكنها لم تستطع جذبه وحدها. لحق بها أوران، وأخذ موضعها، ثم انتظر انحسار الماء قبل أن يجر السفينة نحو الجانب الأعمق من الخليج.

تحرك الهيكل ببطء، واحتك أسفله بشيء غمرته المياه.

قالت إيسا: «إلى يسارك قليلًا. هناك حجر تحت المؤخرة.»

أرخى أوران الحبل، فاستدارت السفينة مع الموجة التالية. اختفى صوت الاحتكاك.

كان ِرفال بين نائل ورائف، يرفع قدميه حين يطلبان منه، ثم يترك وزنه عليهما. لم تتوقف رجفته منذ ابتعدوا عن الجسر. شدّ نائل الرداء حول صدره، وأعاد ذراعه فوق كتفه.

«بقيت صخرتان.»

نظر ِرفال إلى الماء بينهما، كأنه يحاول تقدير المسافة ولا يستطيع. تحركت شفتاه، لكن اصطكاك أسنانه ابتلع الكلمة.

وصل أوران إلى جانب السفينة، وتسلق السلم القصير المعلّق بها. ألقى حبلًا آخر إلى رائف، فثبته حول صدر ِرفال تحت ذراعيه. دفعه نائل من أسفل، وسحبه أوران حتى انزلقت ركبتاه فوق الحافة.

بقيت نيرفا خلفهم.

وضعت قدمها السليمة على الصخرة الأخيرة، ومدّت المصابة إلى الدرجة السفلى. ما إن حملت عليها بعض وزنها حتى انثنت ركبتها، فضرب غمد سيفها الخشب. أمسك نائل بمرفقها قبل أن تميل إلى الماء.

«انتظري الموجة.»

ألقت عليه نظرة سريعة، ثم أعادت قدمها إلى الصخر. حين ارتفعت السفينة، أمسكت بالحافة بكلتا يديها ورفعت جسدها دفعة واحدة. ّجرت ساقها وراءها، وعبرت إلى السطح قبل أن تنخفض السفينة من جديد.

لم تمد ًيدا إلى أحد بعد ذلك. استندت إلى الصارية، وانتظرت حتى استقام تنفسها.

كان الماء قد بلغ خصر إيسا. حاولت تخليص الحبل من نتوء الصخرة بيدها السليمة، لكنه اشتد مع حركة الهيكل. مدت اليد الأخرى غريزًيا، ثم سحبتها حين لمس الضماد الحبل.

عاد نائل خطوة.

«اصعدي.»

أخذ الحبل منها، وانحنى حتى أدخل أصابعه تحت العقدة المبتلة. انتظر رخاوتها بين موجتين وفكها. مرت إيسا إلى السلم، تحمل معظم وزنها على يد واحدة، وّمد رائف ذراعه إليها من الأعلى.

تحررت السفينة من الصخر.

تعلق نائل بآخر درجة وهي تبتعد، واندفع الماء بين ساقيه. أمسك رائف بساعده، وسحبه حتى بلغ السطح. خلفه غمرت موجة الموضع الذي كان يقف عليه.

قالت إيسا، وهي تشير بيدها السليمة إلى فتحة الخليج: «لا تتبع وسط الماء. ابق قرًيبا من الجرف حتى نتجاوز ذلك السن.»

رفع رائف المرساة، ثم أدار أوران الدفة.

ّمرت السفينة بمحاذاة الصخر، قريبة بما يكفي ليرى نائل الأصداف العالقة فوق خط الماء. وقفت إيسا عند المقدمة، تحدد الاتجاه بإشارات قصيرة. لم يرفعوا الشراع حتى خرجوا من ظل الرأس، وحين امتلأ طرفه بالريح كان الخليج قد اختفى وراءهم.

أنزل نائل ِرفال إلى جوار فتحة المقصورة، حيث يحجبه الخشب عن الريح. جاء رائف بغطاء جاف، وساعده على نزع الرداء المبتل عن كتفيه. كانت أصابع ِرفال ملتوية إلى الداخل، والجلد عند مفاصلها شاحًبا.

لف نائل يده بقطعة قماش، وأحاطها بكفيه.

حاول ِرفال سحبها.

«اتركها قليلًا.»

توقف عن المقاومة. أسند رأسه إلى الخشب وأغمض عينيه، لكن الرجفة بقيت تسري في ساقيه تحت الغطاء.

جلست نيرفا على مقعد قريب. أرخت الرباط الجلدي حول ساقها، وأزاحت طرف الضماد. كان الدم قد عاد إلى حافته. تناولت قطعة قماش من رائف، وضغطتها على الجرح دون أن ترفع بصرها إليه.

اتجه نائل إلى المقصورة ليأتي بماء. تحركت حقيبته عند خصره، واصطدم ما فيها بجانب الباب.

رفعت نيرفا رأسها.

«ليست لك.»

توقف.

كانت تنظر إلى الحقيبة.

فتحها نائل، وأخرج القماش الملفوف. ظهرت الحلقة الداكنة بين طياته، والخطان المحفوران على معدنها. تقدم ووضعها في يدها.

أطبقت أصابعها عليها.



لم يقل إنه أنقذها من الجسر، ولا إنها بقيت معه لأن ِرفال عجز عن إفلاتها. عاد إلى المقصورة، وخرج بالماء.

كانت نيرفا ما تزال تنظر إلى الحلقة حين مرّ بجانبها. أخفتها داخل ثوبها، وأعادت شدّ الرباط فوق ساقها.

انخفضت الشمس وراء المرتفعات. على الساحل ظهرت نقاط ضوء متباعدة، بعضها ثابت فوق أبراج، وبعضها يتحرك قريبًا من الماء.

أشار أوران إلى المصباح المعلّق عند باب المقصورة.

«أدخله، وغطّ النافذة.»

حمله رائف إلى الداخل. تراجع الضوء عن السطح، وبقيت الوجوه ظلالًا تحت آخر زرقة في السماء.

اقتربت إيسا من الدفّة. تبعت بعينيها ضوءًا يتحرك خلف الرأس الذي غادروه، ثم نظرت إلى امتداد الساحل أمامهم.

«أبعد قليلًا. لو بقينا هنا رسمتنا مصابيح الشاطئ على الماء.»

عدل أوران الاتجاه.

تابع نائل الضوء حتى حجبه الجرف. لم يعرف إن كان قارب صيد أو دورية. نظر إلى جانب السفينة؛ صار الهيكل الأسود يذوب في البحر، ولم يبق ظاهرًا منه إلا خط رفيع يلمع كلما ارتفعت موجة.

ما بحث عنه رجال هاروك نهارًا صار يخفيهم الآن.

قال أوران: «سنواصل بمحاذاة الساحل. لا ندخل ميناء هذه الليلة.»

رفعت نيرفا وجهها إليه.

«إلى أين؟»

«قاسران.»

توقفت يدها فوق الرباط.

من موضعه عند ِرفال، رأى نائل فمها يضيق. نظرت نحو الشاطئ الذي بدأ يبتعد، ثم إلى أوران.

«تعرف من أدخلت إلى سفينتك؟»

«أعرف.»

«إذن تعرف كيف سيستقبلونني هناك.»

أبقى أوران يده على الدّفة.

«لن ندخل من مرافئهم العسكرية. هناك ما نبحث عنه، ولسنا نقصد ملكتها.»

«والدوريات لا تحتاج إلى إذن ميرافا لتعرف وجهي.»

قالت إيسا: «لهذا نبقى في البحر حتى نجد موضعًا للنزول. لن أختار خليجًا قبل أن أرى ما حوله.»

نظرت نيرفا إلى يد إيسا المضمدة، ثم إلى رِفال تحت الغطاء. كان قد فتح عينيه، من غير أن يرفع رأسه.

عادت ببصرها إلى الساحل.

«ما دامت الحلقة معي، فلن أعيدها إلى هاروك ليأخذها إيردان. أوصلونا إلى موضع نستطيع الوقوف فيه على أقدامنا.»

أومأ أوران، وتابع الاتجاه الذي أشارت إليه إيسا.

لم تسأل نيرفا ّعما يبحثون عنه في قاسران. ّشدت عقدة الضماد بأسنانها، ثم أسندت ظهرها إلى الخشب، وسيفها بمحاذاة ساقها السليمة.

جلس رائف إلى جانبِ رفال وأعطاه القدح. احتاج الشاب إلى يديه ًمعا ليثبته، فبقي رائف ممًسكا بقاعه حتى شرب.

قال له بصوت منخفض: «أول ما سألت عنه كان الرجلين اللذين لحقا بك.»

توقفت حافة القدح عند فمِ رفال.

«أول ما خرجنا بها من المقطع.»

لم يجب. أنزل القدح قلًيلا ونظر إلى نيرفا.

كانت تواجه الريح، وتبعد خصلة شعر علقت على فمها. تحت المقعد، تحرك طرف القماش الذي تركه لها عند هروبه، مثّبتا الآن حول جرحها.

ّظل ينظر حتى وضعت يدها على مقبض السيف. عندها أعاد القدح إلى رائف، وجمع الغطاء فوق ركبتيه.

لم ينطق أحد بما ينتظر بينهما.

صعد نائل إلى جوار إيسا عند المقدمة. كانت تحدق في الظلام، تميز من صوت الماء ما لم يعد يراه. أشارت إلى أوران أن يحافظ على المسافة، ثم وضعت يدها المصابة تحت حزامها كي لا تتأرجح مع حركة السفينة.

وراءهم أخذت أضواء رهفان تنخفض. بقي منها مصباح وحيد فوق الرأس، غاب وظهر بين طرف الشراع والحبال، قبل أن يبتلعه الليل.

لم تتحرك نيرفا من موضعها. كانت كفها فوق الموضع الذي أخفت فيه الحلقة، والسيف عند قدمها، ووجهها نحو الساحل الذي سلكته من قبل على رأس جيش.

هذه المرة كانت تقترب من قاسران بلا جنود.

وصل تقرير إيردان بعد أيام من مغادرة السفينة ساحل رهفان.

كان الشمع يحمل علامة هاروك، لكن الورقة تحتهُ كتبت على عجل. قرأ ماردين السطر الأخير مرة ثانية قبل أن يضعها أمام جروان.

ُ«أغلقت الطرق الجنوبية، ُوضوعفت الحراسة عند الجسور. غير أن تدخل غرباء يعرفون مسالك المقطع أتاح للفارسة الانسحاب من موضع يتعذر تطويقه. وما يزال البحث جارًيا عن السارق والأثر الذي أخرجه من خزانة الملك.»

ترك جروان الورقة على الطاولة.

«كم رَجلا أرسل؟»

«لم يذكر.»

«ومن عاد منهم؟»

«لم يذكر أسماءهم.»

دفع جروان التقرير بطرف إصبعه نحو ماردين.

«اطلب الأسماء.»

لم يسحب ماردين الورقة. أخرج من الملف تقرًيرا أقدم، ووضعه إلى جانبها. في أعلاه علامة ميرازا، وتحتها شهادة الرجل الذي جرفه الماء من المجرى الخفي: فتى يحمل القرص، وختم يضيء تحت ثوبه، وحجارة تنفتح عند الجدار.

بقيت الورقتان متجاورتين.

قرأ جروان موًضعا من الشهادة، ثم عاد إلى تقرير هاروك. نقل عينيه بينهما حتى ّمد يده إلى الخريطة وجذبها نحوه، فانزلقت ّثقالة صغيرة عن طرفها.

وضع ماردين إصبعه عند أحد خلجان رهفان.

«شوهد هيكل أسود قرب هذا الرأس. وصل أمر التفتيش إلى المرسى، لكن الحراس بحثوا بين السفن الراسية. لا يذكر التقرير أنهم فتشوا الخلجان خلفه.»

«هل رآها أحد تغادر؟»

«لا شهادة يمكن الاعتماد عليها. قارب من الساحل تبعها قبل ذلك، ثم فقدها عند الرأس.»

ضغط جروان بإبهامه على حافة تقرير ميرازا.

«القرص هناك، والحلقة هنا.»

لم ُيجب ماردين.

رفع الملك بصره إليه.

«قد تكون مصادفة.»

«قد تكون.»

أعاد جروان نظره إلى الخريطة. امتد الساحل بين موضعي إصبعيه، تتخلله خلجان صغيرة لم ُتكتب أسماؤها. عند هاروك توقفت خطوط الطرق ثم تفرعت من جديد، بعضها يتجه إلى الداخل وبعضها يلازم البحر.

«إيردان يبحث عن رجل يحمل حلقة. أنا أريد أن أعرف من يغادر معه.»

سحب ماردين ورقة فارغة.

«نرسل قاربين خفيفين بمحاذاة الساحل، يتبادلان المراقبة عند الرؤوس. وعلى البر، فرسان بين المرافئ ومواضع النزول. إذا توقفت السفينة، يصل الخبر من

أقرب محطة.»

«لا تضع رجالًا بزي واحد في كل مرسى.»

توقف القلم لحظة، ثم تابع.

«والأمر للحراس؟»

«يبلغون. لا يحتجزون أحدًا.»

رفع ماردين رأسه.

«حتى إن نزل حامل الخريطة؟»

«خصوصًا إن نزل.»

تحرك طرف الورقة تحت يد ماردين مع نسمة دخلت من النافذة. ثبته بمحبرة صغيرة، وانتظر بقية الأمر.

قال جروان: «أريد عدد من معه، ووجوههم، والأبواب التي تُفتح لهم. من يبيعهم الطعام، ومن يخرج لاستقبالهم، وأين يتركون السفينة إذا ساروا بَرًا. لا أريد رجلًا متعجلًا يرفع سيفه فيجعلهم يختفون مرة أخرى.»

«وإن حملوا الأثرين؟»

نظر جروان إلى التقريرين.

«ليحملوهما إلى المحطة التالية.»

كتب ماردين الجملة الأولى من الأمر، ثم شطب كلمة واستبدلها بأخرى.

«أبلغ إيردان؟»

«أبلغه بما يحتاج إليه لحراسة هاروك.»

جمع ماردين الأوراق، وأبقى التقريرين على الطاولة. عند الباب استوقفه صوت الملك.

«خذ إفادات العائدين من المقطع قبل أن يكتب لهم إيردان ما يقولونه.»

انحنى ماردين برأسه وخرج.

بقي جروان واقفًا أمام الخريطة. تناول القلم، ووضع سنّه عند الخليج الذي أشار إليه ماردين. رسم حوله دائرة صغيرة، ثم مدّ منها خطًا بمحاذاة الساحل. مرّ

بالمرافئ، وتوقف عند مصاب الأنهار، ووصل الطرق التي تصعد من البحر إلى الداخل.

لم يختر وجهة للسفينة. أحاط المواضع التي يمكن أن تنزل فيها، واحدًا بعد آخر، حتى اتسعت الدائرة.

عند الطريق الساحلي المؤدي إلى قاسران، انفتح سنّ القلم وترك قطرة سوداء.

سحبها جروان ببطء إلى الضفة الأخرى، وأغلق الخط.

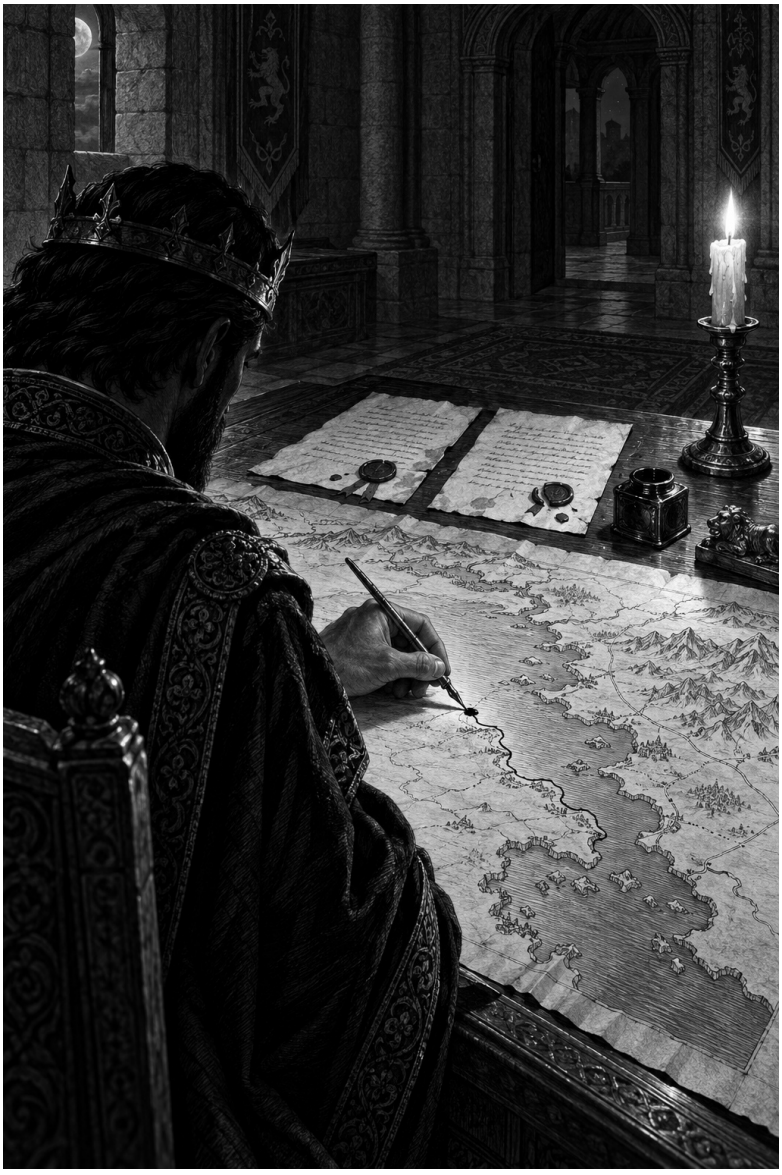

بلاد التيجان السبعة

أصداء المحو

الجزء الثالث

بعض الطرق لا تقود إلى أرض جديدة... بل إلى ذاكرة محيت.

يغادر نائل تيرافا برفقة أوران ورائف، حاملاً أسئلة أثقل من زاده. وعلى متن سفينة سوداء، تقوده بوصلة قديمة نحو بحر السكون، حيث تضطرب المسافات ويصبح للوقت ثمن لا يعرفه العابرون.

بين خرائط تخفي أكثر مما تكشف، وآثار ماض يرفض الغياب، يقترب نائل من حقيقة تهدد ما عرفه عن العالم. وكل طريق يفتحه يضعه أمام وعد، وكل وعد قد يطالبه بما لم يستعد لخسارته.

وفي الممالك، تتبدل الولاءات، وتتحرك قوى تتنازع إرث التيجان. فيين من يسعى إلى استعادة ما محي، ومن يريد إبقاءه في الظلام، تضيق المسافة بين النجاة والخيانة.

حين يعود الصدى، من يملك الشجاعة ليسمعه؟



رضا الحكيم الشعيري